صدى الأيام الغامض

صدى الأيـام الغامـض

روايــة

خليــل الــزينــي

صدى الأيام الغامـض

روايـــــة

اسم الكاتب: خليل الزيني
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية للنشر والتوزيع
تصميم الغلاف: هند وصفي
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٦٥٧٥ / ٢٠١٨
طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

الإهداء

إلى .....

نبع الإصالة والاحترام

مرتقى الفكر

مَنزل الكرام

أ.د/ سيد شعيب

أستاذ علم السكة الحديد بهندسة المنصورة

قاطرة الأمل وتحويلة الفكر (محولجى! الإنسانية)

(سينافور القلب الوعي) وناظر محطة .... *الضمير*

دمت ملهمًا ونفسًا مشرقة بالحياة

بك اشتد عزمي وصبري

صداك دومًا ...معي

خليل الزينى

(١) أصل الغصن.

تشدو البلابل بما فطرت عليه من حب الحياة، وتفوح الأزهار بعطرها بلا بخل أو خجل. هذا كان حالي فقد خرجت وتفتحت عيناي على أبي وهو دائما يجالس الكتب والصحف. لا يمانع في استضافتي بالمكتبة، حينما كنت طالبًا بالمدرسة الثانوية تحت لوائه بالإضافة إلى ما يكمن من موسوعات ومجلدات بالبيت، لقد كان أحد أبناء مرحلة الوَهَج الثقافي والفكري.

عندما كانت (الرسالة) مدرسة و(الثقافة) ملهمة لكل كاتب ناشئ أو موهوب صاعد، فقد كان طالبًا بالأزهر، وله من الملكات الفكرية والقلمية ما كانت تؤهله لكي يحلُم ويحلُم؛ فهو ذو ذاكرة حافظة، ولسان طلِق في مضمار الدعوة والدين، وإن كان يفضل القلم أكثر... كان الأزهر يحفظ ويراعي أبناء هذه الحقبة بحق، ودار العلوم ومدرسة الشريعة تدفعهم للأمام.

حقاً كثيراً ما كنت أحلُم بأن أرتدي زي أبي، و أنضم لصفوف الأزاهرة، لكن لا أدري ما الذي دفع أبي لأن يؤجل ويؤجل حتى فارقني هذا الحُلم!

بدأتُ أعبث بأور اقه وكتبه في البيت، أدهشني أنه ما يزال يحتفظ بالأعداد القديمة للمجلات التى كانت تنشر له، لقد كان صغيرًا على أن يساجل ويكتب في هذه الموضوعات وتلك القضايا، كانت صورة من صور الفوران الفكري لو حاولت أن أبعث الروح في تلك الذكريات...

لا يكون الجواب أكثر من ابتسامة خجلى وإشاحة من يده قائلا:

(كانت أياما ودو افع، فلما تغيرت الأيام... غابت شمس الأحلام).

تزوج أبي على غير عادة جيله، كبيرا نوعا ما، من إحدى قريباته البعيدات ليضمن فيها كل ما يود، فوالدها ذو استقامة وسمعة حسنة وأمها في قرارٍ أمين... هذا أبي وتلك أمي أما أنا - عمر - فقد كنت الابن الثاني لهذه الأسرة، وفي جواري ثلاث بنات إحداهن أكبر مني بثلاث سنوات.

واستمر أبي على حبه للقراءة وتحولت مداعباتي للمكتبة إلى عادة، مقلدًا في أول الأمر، ثم تسرب إليّ حبها ومعها بعض أحلام الوالد، وجزء من موهبة الخطابة، بالتحديد فن المناظرة، وكيف تحاور وتناور بأعصاب باردة؟

كان أبي يملك دولاباً صغيراً لم يسمح لي قط بفتحه بإصرار غريب، وعناد... ولكن أقنعني بأن ميعاد فتحه لم يحن بعد.

خلال مرحلة صباي كنت أسعد جدا عندما أجد أبي يرتقي منبر المسجد خطيبا، هادئ الصوت مرتب الأفكار، موجز الكلمات. أما إن جلس بالمسجد تحول المكان إلى ساحة من النقاش المرح المنظم المهذب، والمحبب لنفوس الكبار ومن خلال هذا يشرح ما يشاء، كان يجيد موضوعات الحياة، والدين وحق الآخر والواجب نحو الآخرين لعل ما كان يخفيه في نفسه عني هو حب البذل للصدقة، وحبه العظيم للوطن الكبير فكرًا وقولا وعملا ولا أدري كيف استطاع أن يزرع هذا فيّ !

كلما تذكر واجبه نحو هذا الحب علت وجهه سحابة من الاستفهام أو الاستنكار، هل كان هذا الحب غُرمًا عليه سبب له جرحا ما؟

بحثت عن الجواب، نلتُ بعضا منه عن طريق أمي.

كل ما أفعله صحيح ما دام لا يؤخر واجبًا ولا يستهلك حقًا، هذه هي القاعدة التي شببت عليها فالحياة ممارسة ولا أجد ممانعة في أي نشاط!

حتى أختي هوت عزف الكمان... فسعى الوالد لشراء واحدةٍ لها... أما الكبرى فكانت تهوى الرسم لدرجة أنه نصحها أن تدرس الهندسة.

لقد كانت تود أن تصرح بهذا ولكنها تخشى رفض الوالد فإذ به يدفعها لهذه الدراسة... لقد كنا نظن أنه سيمانع، لأن الهندسة مهنة الرجال، وأن النساء ما خلقن لهذا، وإلى آخر هذا الكلام الذي بدا يطفو على سطح الحياة الاجتماعية الآن، لقد كان الرفض متوقعاً خصوصاً أن الوالد بدأ يمانع البنات في بعض الأزياء ويفرض على الكبيرة زيًا محدداً.

لقد استطالت "الفساتين" و اتسعت ولزم "الإيشارب" رأسها، وعندما دخلت الجامعة و أبدت للوالد بعض التذمر عن أثقالها.. وزيها، كان يسمع فقط ويجيب عليها قائلا:

"إن لم تكوني تحبينه لذاته؛ فعليك الالتزام به حبا لوالدك وطاعةً لأمره"!

كان معين فكره كبيرا، ومتجددا، فقد خاض الدنيا بشغف واستعلاء فلم تفر منه ولم يهزمها.

كان راضي القلب إلى أبعد الحدود، هل كان السر في عقيدته الفكرية؟!

لقد لحق بأبي لقب الشيخ حين خرج إلى المعاش فقد تفرغ للمسجد، وساعده في ذلك أن كل فرسان ذلك المجال قد كانوا زملاء دراسته في الماضي، أو رفقاء درب الحياة والثقافة والفكر.

(٢) الحريق.

سكتت المدافع ولزم الجنود الثكنات، لقد أدى الكبار عنا ضريبة الدم... ذبحوا السياف، فسقطت عن رقابنا سكين القتال... لقد بدأت تعود الأرض، وتسطع شمس العمران، ويتمايل نخيل الحرية وتفتحت الأزهار، ومنها زهرة الشتات! إنها زهرة سوداء عفنة لا تدرك كيف تنمو سريعا، وعلى حين غِرّة؟

عندما لحقتُ بأختي الكبرى لندرس بكلية الهندسة سويا بفاصل عمري يساوي سنتين.. وما أن شاركتُ في أحد النشاطات الثقافية بالجامعة... باندفاع الهاوي - لا أكثر- حتى وجدت البعض يسأل عني ويحاول التعرف إليّ، ويسأل مستفسرا... هل ذاك الشيخ والدك؟

كان أغلب من يسألون هذا السؤال مادحين لأبي، والبعض منهم إذا عرف أني ابنه لمزني من باب أني ابن الدرويش ساكن المحراب بلا حراك...

كثيراً ما كنت أجد نفسي مدفوعاً للدفاع عنه، والتأكيد على أن الإناء يتسع لكل الشاربين... وحب الوطن معينه لا ينضب. أما أمرُّ ما كان يزعجني أولئك الشبيبة التي أنكرت كل الحياة بعاداتها وتقاليدها حتى الدين هو الآخر أنكرته... فكيف أتعامل معهم؟!

كنت أدفعهم بسلاح الصمت، أسمع منهم، أحاول أن أجُيش إجابتي لِما سمعت حتى إذا تكرر... وجدتُ الذخيرة الكافية... حقا لقد أصبحنا في ساحة نزال ولا ندرك ما الداعي؟ وما المناسبة؟ وما نهاية المطاف؟

أنا مع هؤلاء ومع هؤلاء... لا أنكر على أحد فكره سواء أتعصب أم تمرد... لكن بالتأكيد كنت أجد لغة مشتركة وأرضًا أقف عليها مع أحد الحزبين، لقد كنت أذكر فضل أبي، عليّ حين علمني وزرع فيّ فن إدارة الوقت، فاستطعتُ أن أسير في الدراسة بجد ودأب أحتفظ بالمركز الخامس على دفعتي.

"الخير كل الخير سيهب على أيادي أبناء السلام"!

يا للعار هبت النار... لقد فاحت رائحة أزهار الشتات... لفحتنا بريح جهنم، وطالت كل الرجال، فارق أبي البيت، طال الغياب... زاد الشجن... اضطرب الوجدان... شلت الأذهان، وتوقفت عن العمل، عصفور من جهنم يطوف بالديار... كررت نداء أبي:

"كن المقتول.. لا تكن القاتل... كن المقتول ولا تعص الحاكم... كن المقتول... والزم الجماعة..."! عاد أبي وهو على قسمه وعهده!

"الحب سم وترياق"!

قبض الشباب على جمر الخلاف فاحترقوا، فلذا خرجتُ عن الطريق الذي حلمت به... توارت أخباري لعام ونصف حتى ثبتت براءتي... من ماذا؟

لقد دفعت ضريبة حب الوطن التي تدفع سلباً أحياناً، وصبراً أحياناً، ما أثمن الحب إن وجد!

فما بالك لو كان وجدا بالوطن، كان أبي يبعث لِي بالرسائل ولكن لحكمة لم تصلني منه إلا واحدة فقط.

"عمر.. الأيام قرينة البلايا والمحن.. اصبر واسكن بطن الحوت لتنجو بالنور.. فما النحيب بالسبيل، لكن اصبر، فبالصبر يُسْبَكُ الذهب من الصخر"!

لقد أصبحت الظنون تحوم حولي... ويفر البعض مني، والبعض الآخر يحاول النبش في ذاكرتي ليرى بلساني دنيا الظلام... التحقت بمشروع متوسط المستوى عند التخرج لأن المشرف عليه كان أحد المشاركين في زمن الحوارات، فكثيراً ما كان يبدي إعجابه بفكري الثقافي إلى جوار دأبي الهندسي الذي ولى! لقد استطاع أن يوقظ ملكاتي الفكرية مرة أخرى... ويدفع بي للأمام حتى أحقق الحلم الكبير بأن أصبح زميلاً له.. كان أستاذنا/ تيسير الإمام الذي ما حييت فلن أنسى فضله.. مثالا للأب والأخ الأكبر في مجال الحياة أولا، ثم العلم ثانيا، ذو أفق واسع وخيال ونشاط مع الشباب، فمن منا كان يتأخر عن لقائه بقاعة الدرس! كان أستاذًا نافعًا لكل الطلبة، صارمًا في حدود المنطق، عندما يعلن نتيجة الامتحان التي غالبا ما تكون معلنة من قبل، عقب انتهاء الامتحان الشفوي، والتحريري فرصة لمن يتأرجح، ساعدني بشدة وحماسة زائدة، جعلني أقبل وظيفة بمعامل الكلية حتى حين، ثم عزف على وتر القراءة فأخذ يدفع لي بالكتب ويطلب مني بعض الاستخراجات منها، إنه يود التأكد أني قرأتها.

"العقل فيك تكراري، وعينك لها إرهاصات هندسية، ولكن بطء الاستيعاب فيك يعوضه جودة الحفظ والإتقان في الابتكار"... هكذا علق على ملخصاتي.

حتى حدثت المفاجأة، وما أكثر المنح الخفية في طي تدابير الأيام! لقد بعثت إدارة البعثات للكلية منحه في تخصصي... لا يوجد من يحق له السفر... كادت الجامعة أن ترد المنحة حتى علم الأستاذ تيسير فهب ساعيا ليرشحني لهذه المنحة.

"نعم يسافر عمر –مهندس المعمل– بدل أن تضيع علينا المنحة، وخاصة أنها منحة إضافية وبهذا نكون قد كسبنا زميلا، ولعلكم تذكرون أنه لولا أيام الحريق لكان عمر الآن في بعثة رسمية".

بهذا كسب الأستاذ تيسير آراء مجلس الكلية وحق لي السفر –كما كنت أحلم– إلى ألمانيا في صيف ١٩٨٧م.

حمداً لله فقد أعطى المنحة في طي المحنة.

(٣) الوصـــول.

كنتُ أشك في قدراتي جدا... أستشعر الخجل من نفسي كأني سارق يتوارى بما سرق ويخاف افتضاح أمره، أنظر لزملاء الصف الدراسي كأنهم عمالقة، و أنا القَزَمُ الساعي بين أقدامهم.

حتى استطعتُ أن أبدأ فى فك طلاسم اللغة الألمانية وأطّلع على عناوين المحررات الدراسية باللغة الإنجليزية... هنا بدأتُ أستعيد ثقتي شيئا ما... اكتسيتُ بالثقة تماما عندما ساعدتُ أحد الزملاء الألمان في شيء هيّن كان يعسر عليه جدًا. لقد عاد عمر القديم ليلزمني... عمر الساعي لنيل الدرجة العلمية؛ المملوء بنشوة الدرويش التي شربها من يد الأب -رحمه الله- لم تمهله الأيام ليشهد هذا النصر... لقد سكنتُ في بيت للطلبة، وتجاورت البعثة.. المصرية مع السورية والتركية والإيرانية، سريعا انسجم المصري مع السوري... ووقف التركي ينظر لنا باستعلاء أما الإيراني فكان ينتظر النداء حتى ينسجم معنا، وحقًا بدأ بالسوري... وعبر هذه الصداقة تعرفتُ على أبناء الوفد الإيراني... ولكن سريعا سمعناهم يبكون ويعلو صوت بكائهم، وهناك من سقط مغشيا عليه لقد انكسر الإناء وفاض الماء وعطش الساقي فأنى له أن يرتوي... لقد رحل آية الله الخميني.. بعد أحداث غريبة على المستوى الدولي والداخلي في إيران.

أما ما كان يلهينا بحق عن كل الأحداث لقد انفجر بركان الغضب العربي بأرض فلسطين في شكل ثورة شعبية كان اسمها أطفال الحجارة.

كنا ننتظر أن تتحول إلى صورة من صور حرب العصابات، فهذا هو الأسلوب الذي يفهمه اليهود فهم لا يتحملون حياة الرعب، ما كاد يسمع أحد النزلاء معنا هذا حتى بدأ يدبر لنا المتاعب حتى لاح لنا أنه يهودي روسي أو العكس، فقد استبد به الكلام حتى كاد أن يفقد صوابه، وكلما جاءت الأخبار بما يسرنا زاد جنونه.. وزاد كلامه وصياحه الذى قارب العواء.

كانت الانتفاضة على أشدها، والكل يتكلم؛ وظهرت ملفات شامير السوداء، وجماعة أشتيرن... وتاريخ اليهود في البلاد الأوربية، وكم كانوا لعنة على أهلها!

الألمان على رقابهم دائما السيف لا يتدخلون في هذه الموضوعات، ولهذا تجنبت هذا الشاب الذي دوما يعترض طريق الشبان المصريين، ولهذا تركته ذات مرة فريسة في يد خورادى الإيراني صديقي لأن الجالية هنا ذات صوت ومهابة.

"ثم علا صوت خورادى: عاش أسد المدائن مع فرعون النيل في ظلال مكة".

كان خورادى لا ينكر الفرق الدينية، ولكنه كان يكره الشتات، ويضرب لنا مثلا بالعدو..

"كانوا شتاتا أولًا القرائين والربانيين والأشكناز والسفارديم والسامرائين والإسرائيليين، ولكنهم اجتمعوا من أجل غاية واحدة...". ومرة أخرى يضرب لنا مثلا بالأخوة الأعداء، ونضحك من مثله هذا.

"أوربا بعدما عرفت معني الحرب والدمار والفرقة اتحدوا.. لا من أجل الحب والمبادئ.. لكن يحركهم شيطان اسمه المصلحة".

كان خورادى دومًا يحب لقاء المصريين بخاصة لقائي، وكان يلقبني: العصبي البصير! وعرض عليّ أن أتزوج من أشاء من أهله، فرفضت رفضًا جميلًا، لأني قصير اليد، ولا أجد ما أنفقه، ولا أحب أن أكون أسير فضل أنثى، أو سجين مَنّها.

وكم عانيت في رد خورادى في هذا، ولو لمحت لأني متزوج في مصر لحاصرني بالتعدد، ولو لمحت له بعدم الاستعداد النفسي لهذه الخطوة.. لنظر إلي ساخرا مستهزئا.

ظهر اجتماع مدريد في التلفاز، لا نصف لك حجم الوجوم على زميلنا اليهودي كأن "حرمات بيته تساق لدَنِية أمام عينه".

لم يصمت إلا عندما صاح به أحد الجلوس: "فلسطين..احتلت عام ٤٨ وليس عام ٦٧".

وأكملتُ.. نحن لا نأكل الفتات، ولكننا نصلب أعوادنا به حتى نلتهم الوليمة كلها.

طالب اليهودي و أنصاره بمناظرات لنا في أحقيته بالأرض وما شابه..

كانت المفاجأة أني اشترطت عليه إن هزمته وطئت بقدمي على رأسه ورأس "الطاليت[1] الأكبر" فلُجم بلجام من نار، وأحس اليهودي بحجم المقامرة، طلب المساواة في الشرط..

رفضتُ قائلًا: أنت الساعي، وأكيد سوف تظفر فلماذا أدخل في شروط لن أقدر عليها؟

---

[1] طاليت: شال الصلاة عند اليهود، والمقصود الحاخام اليهودي.

استطعتُ يومها أن أعزف على أوتار عقول مشاهدي، وأداعب قلوبهم وألمس جراحهم وأطرح السؤال الحرج بمنتهى الوضوح..

من كان السبب في فرقة الألمان... وتقسيم برلين... وضياع السهل الشمالي في الحرب الأولى، ومن بعدها... أليس حقا على الثوار تحرير الضياع، والعودة من الشتات إلى حضن الوطن الأم؟

فخرج المناضل باسم الجموع "هتلر" ليصنع منكم المعجزة ثم الهزيمة، ومن كان السبب في التقسيم و إفساد دورة ميونيخ ١٩٧٢.. والآن هدأت عيون أبناء أفضل شعوب الأرض وأعقلهم بالوحدة.. وهل الوحدة علينا نحن العرب من المحرمات؟! والحق التاريخي هذا اسألوا تاريخ أوربا حين طردت أوربا أبناءها اليهود.. فكنت أنت يا "بارانس" اليهودي حفيدًا لهم لأن جدك لجأ إلى حاكم المسلمين وأسكن اليهود في السهل التركماني، أو السهل الأعظم كما يقال عنه، والآن تجحد كل أيادي الفضل عليك.. ليس عليك بجديد لو كنت مؤهلا للحديث لقلتُ أكثر".

ضجت القاعة بعد أن كان كل الجلوس بها صامتين من أجل متابعتي، فلقد استخرجتُ أحد مواهب الماضي وهي تناغم الصوت.. استكملت الحديث: (نحن لا دخل لنا باليهود أو بمعنى أدق اليهودية.. هل هناك من جنسية باسم ديانة؟ الزميل "بارانس –اليهودي المدافع عن الحق في أرض الميعاد هنا لأنه في منحة من الصديق الألماني للحليف الروسي، أي أنك روسي فكيف تتكلم بلسان دولة غير دولتك؟ أنا مصري عربي أدافع عن

حق نفس الجماعة يا ابن العم هل تنكر هذه أيضا؟ كما أنكرت صابرا وشاتيلا و أنكر جدودك الوشاية بالمعمدان).

قام بارانس بالبصق في وجهي هكذا مباشرةً، وكان على وشك الموت لولا كلمة خرجت.. "عمر صاحب الحق في التصرف معه".

كان صوت نسائى يتكلم ليحسم الغيظ المكبوت..

نظرتُ للزملاء الألمان..

"وحق صاحب البيت أوجب عليّ الصمت".. هكذا رددت على عجل!

وكان المعني أن تتخذ السلطة الجامعية الإجراء اللازم في هذه الحالة..

وكم أدهش الناس تعليق أحد الجلوس: "نحن ضد الاحتلال لا الدين"..

وآخر: "ما المانع أن يعيشوا تحت سلطة الفلسطينيين... والسامرائيون أليسوا فلسطينيين؟"..

كنت أظن أن عند هذا الحد سوف تقف مضايقات صاحبنا الكريه "صاحب اللعنة"، ولكنها زادت ووصلت إلى مبنى المعيشة.

كان بارانس اليهودي الروسي -نحتار في وصفه- يفعل كل جهده من أجل أن يحتك بي أو أحد رجال البعثات الرسمية..

هنا في هذا المبنى لم نجد خورادى ليريح الكل.. في المبنى عرب كثيرون ولكنه يتحرش بي ويتربص بي ويود الاشتباك معي... الكل يسأل: لماذا يتربص بعمر دون الكل؟

الجواب جاء من الإشراف الألماني: "أنت دومًا معه في سباق فكرًا وعلمًا و أنت أسبق منه على الرغم من الدعائم التي تسانده علميا.. و أنت

تظهر بطء عقله، ولا تنسَ يوم المناظرة فقد خرج متواريا في ظلك... أنت مثل قومك.. ما أغباكم! كانت فرصة أن تناله ولن تعود".

كانت هناك أيضا اضطرابات في دنيا الأعمال في ألمانيا، ولهذا قررتُ أن أرحل عن المبنى مؤقتًا لحل النزاع وفض الاشتباك، وأترك العراك حتى أنهي الامتحان التمهيدي... في لحظات الضيق تجد أحيانا الفرج قريبا منك جدا أكثر مما يجب، لقد هبت نسمة صافية هادئة ركنت عكارة الظن بالفرار من المواجهة، وأني خذلتُ الأصدقاء.. كنتُ أفكر في الأهل والشهادة والأموال الرسمية..

هكذا بدأت سوناتا المشرفة الاجتماعية تدخل في نطاق حساباتي، وتوجهاتي.. أظن أنه عندما تقدمت إليها بطلب بدل السكن كانت أول مرة أجلس معها متكلما لمدة من الوقت، وأجد فيها الجدية الهادئة الملتزمة بالمنطق.. وعلقت على أحداث يوم المناظرة قائلة:

"شكرا لك لأنك وصفتنا بالصديق وتجاوزت حين عزفت على وتر الشعب الآري"..

هكذا أخذ الحديث يغزل خيوطه بيننا... وتتكاشف العقول... وتخفق الأفئدة... وتتساءل العيون..

ثم عادت قائلة: "يوم المناظرة كنت تعمل بالقلم، ثم تتكلم، ثم بالقلم وتشير لزميل حتى تجد ما يقال".

مدحتُ فيها قوة الملاحظة، وسعيها لمشاركتنا في دعوة، وقضية، وأزمة، ثم أشرتُ إلى الطلب.

سوناتا: بعيدا عن هذه الشكليات.. ما هو المطلوب بالتحديد يا سيد عمر؟

أجبتُ: سكنًا خارج نطاق مبنى الخدمات على نفقة الجامعة.

- أي أنك تريد استرداد البدل والبحث عن سكن.

- هل يدخل في نطاق عملك إيجاد مثل هذا المكان؟

- هو ليس اختصاصي ولكني سوف أقوم به.. أعلم أن دنيا المعنويات لها ثقلها في بلادكم.

- أرجو أن يكون البحث سريعا جدا.

- هل تستطيع أن تدبر أمر لوازمك لمدة ٧٢ ساعة خارج المبنى .

- لماذا؟

- ستعيش في حجرة ما إذا أرضتك فسوف نأخذها لك.

وحتى لا نضيع الوقت اصطحبتُ سوناتا معي إلى مبنى الخدمات، وهناك فجرت مفاجأة صاعقة هي أني ضيفها في بيتها هذه المدة حتى يتم طرد الروسي من المبنى ما دمت قد خرجتُ أنا أيضا منه.

(٤) الرحلـــة.

البيت أو الشقة كما تدعي صاحبته هو ليس بيتاً أو شقة أقل ما يوصف أنه فيلا فهو من طابقين استقبال، وعلوي، ودون الاستقبال للخدم، فهو على طراز معماري مشهور كنت أعرفه، ولكنه سقط رغما عني بسبب التخصص الدقيق.

سمت الحي كله، كسمت الفيلا.. البيوت محاطة بسياج أخضر عبارة عن مجموعة أحواض من الزهر أو ما شابه، أما الفيلا فهي مستطيلة الشكل، صغيرة في أبعادها، تبعث على الدفء في مثل هذه البلاد. الباب الرئيسي بجواره سلم من الداخل، ونهايته الطابق العلوي غالبا.. هو مكون من ثلاث غرف على جانبي السلم مع الحمامات. أما طابق الاستقبال، فهو عبارة عن صالة كبيرة في المواجهة حجرة، وإلى جوارها المطبخ، والحمام أسفل السلم، وكذا ملحق منخفض عن الاستقبال. أشارت إلى الحجرة بأن أستعملها مؤقتا حتى تمر مدة الضيافة..

دخلتُ إلى الحجرة، كان بها مكتب وأريكة عند اللزوم تصبح سريرا، وكذا مِشْجَب.. على الطرف مكتبة محدودة العدد يبدو أنها متخصصة، لا زينة ولا تباهي، إنما للحاجة، وما أكثر مراكز الإعارة تحت يد سوناتا.

كنا نحن ثالث بعثة أو الرابعة الذي تتولى سوناتا أمورها الاجتماعية، وبعثتي الرسمية مكونة من أسرتين وشاب غيري.. كانت سوناتا قد بدأت تتعارف من قرب بإحدى الأسرتين وهي أسرة عزت المصري وحرمه

السيدة أميمة، التي يبدو أنها كانت ضالة سوناتا لأن أميمة تجيد الإنجليزية كالعربية وأميمة لها من الأفكار والعادات والتقاليد التي تود سوناتا فهمها، أو الاقتراب منها.. لا ندري السر... البعض كان يظن أن تولي سوناتا للمبعوثين العرب أو كما كانت تنطقها "أبناء الشرق الواسع" سببه جرح قديم، أو البحث عن زوج يزورها في أحلامها وأمانيها.

لم نحاول الاقتراب أو السؤال عن السر وراء هذا الإصرار على التعامل مع الأوسطيين.. حتى إن إعجابها بهذه المجموعة قد فاق الحد لأننا كنا قليلي الشكوى، أو بمعنى أدق نتجنب المتاعب، ووجود صداقات قوية أزلية بيننا من الأساس حجب عنا الظنون، بالإضافة إلى أميمة التى كانت صمام أمان هذه البعثة..

أخذ العجب من أميمة وقتًا حتى تفهم لماذا تتقرب منها سوناتا؟ وتصر على مد جسور التعارف.. كان في البدء يذهب بنا الفكر نحو أنها تباشر واجبات عملها بالاقتراب من أهل البعثة، وكان هذا لحد ما لا يجانبه الصواب.. دعتها أميمة لأمسية نلتقي فيها جميعا على عشاء مصري صميم تارة (عفن أخضر= بصارة) وأخرى عدس بإحدى أشكاله.

أما أميمة فكانت تصر على أنها لا تقوم بهذا إلا بحق الجوار و أيام الطفولة معى ولولا هذا ما أجهدت نفسها في هذا العمل!

جلست سوناتا في يوم الدعوة تترقب، وترصد، وكأنها تشاهد فيلما عن سكان المريخ.

"لو كنت أفهم العربية لشاركتهم هذا الود".

كانت تلمح بأدب إلى أنها تخشى أن نستخدم العربية ضدها في حوارنا.

- "ما كنت أسمح بهذا في بيتي (فراو= سيدة) سوناتا"... عزت يعلق على خوفها.

بدأت أميمة منذ هذه اللحظة تترجم لها ما يقال بكل ود.. على استحياء علقت على أن النساء يجلسن مع الرجال في مائدة واحدة ويتسامرون معا.. هذا ليس من طباعكم حتى الحاد قليل الابتسامات، يشارككم بصمته، بل ويتفاعل أحيانًا.. كانت تقصدني، وأحيانا فعلا، لا ينكر، لا ينسحب.

- لا يا سوناتا هذا هو النموذج الصحيح لما يحدث في بلدنا بشرط إذا ألف الجميع الكل وحس منهم الأمان، وشاع بينهم الصفاء الحق بلا غرض، أو طمع في مكسب أو توقع منفعة في المستقبل..

كانت ملامح سوناتا قد علتها تعبيرات الأسى الممزوج بالتمني حين قالت:

"كم أحسد نساء الشرق على أفكاركم، وعادات الرجال المتفهمين لمعاني أعباء النساء في الحياة، فأغلب نسائكم في البيوت وإذا خرجن تقدمون لهن يد المعاونة بصدر محب".

استوقفنا العجب من ملاحظة سوناتا، وسادت بيننا حالة من الفخر الممتزج بتضخم في الذات الشرقية كمن يود أن يصيح، هكذا شهد شاهد من أهلها. ردتنا سوناتا من صمتنا الحالم بقولها:

"يبدو أن دينكم أو مبادئ المصريين القدماء تجعل أعناقكم تتهاوى أمام النساء بحدود ليشعرن بمعنى الدلال والترف.. ما السر؟! أهذا لأنهن مصدر رقة ومتعة وبهجة فيجب الحفاظ عليهن؟".

هم أحدنا بالرد قائلا:

"آه لو تعرف ما فيها، الجميل أنه بالألماني، ويا ليتهن يفهمن أو يقدّرن فقط".

أدهش ما قالت سوناتا الحضور، وبهذا شتتت ذهني وجعلتني أتوقف لأعيد قراءة ما حولي من مفردات الحياة كلما استطعتُ.

لقد كانت سوناتا بخاصة ومجموعة من الزميلات بالجامعة، لهن في نفسي مكانة وتقدير للفكرة والمعنى فهن في ساحة الجامعة من الثامنة إلى السادسة عاملات بلا شكوى أو ضجر أو ملل، وعند الفراغ يتم البحث عن عمل أو مساعدة لأي محتاج من جيرانها أو زملائها..

"لا بد أن كثيرين يحسدن دولة.. هذا حال بناتها"! كانت جملة مترادفة على لساني.. في يومنا هذا لم أكتمها لقد صرحت بها، عندما استأذنت سوناتا لأنها مرتبطة بعمل إضافي في الصباح من أجل إعداد برنامج التدريب الميداني لنا.

فقد كنا في نظرها لسنا إلا مجموعة من الخيول تبدأ المسير عبر طريق مرسوم لا يحيدون عنه أبدا، ولهذا فهي كانت تتحمل في سبيلنا بعض المتاعب إذ خرجت معنا في هذه الرحلة بنفسها، وكانت المشكلة الرئيسية عند بداية هذه الرحلة أنها فوجئت باصطحاب الزوجات معنا في الرحلة..

"لم ينص البرنامج المعد على هذا ـ لأنكم لم تطلبوا هذاـ ما الحل؟". سوناتا تسأل.

أمام رفض الرجال لعودة النساء إلى المدينة.. والإصرار على رفقتهن قدم الرجال حلين.. كان الأول مني، وهو دفع الفارق من مصروفات البعثة كتطوع من القادر، أما الثاني فكان هو التقسيم بحيث يقيم الرجال في حجرة، والسيدتان في الأخرى، وترك الثالثة لسوناتا بمفردها.

أمام هذه العاصفة من الاقتراحات تقدمت سوناتا بالحل الأمثل هو ضغط المصاريف الملحقة، والنزول درجة في الإقامة، وزيادة الغطاء الجامعي لكم، والتخلي عن "الباص" المرافق... وهذا ما رفضناه، وقمنا نحن بالتغطية على حق استئجاره، وشاركت سوناتا معنا بنفسها في دفع حصة من الإيجار.

لم نزد عليها في شيء غير هذا فلهذا بالغت في إكرامنا سواء باستعراض بعض الآثار الألمانية، أم الحدائق كلما سمحت ظروف العمل الجاد الصارم، وكلما سمحت هي شخصيا.

عقب الأسبوع الأول تخلت عن عزلتها وسكنت مع السيدات، فزاد الود بين أميمة وسوناتا بحكم وجود لغة مشتركة، أما مريم بقيت كما هي على الحياد كلما سعت إليها سوناتا لا بد من وسيط، ولهذا كانت أميمة تحرص على صحبة مريم، وتحاول إيجاد فرصة لها في الحوار دائما حتى لا تخجل من كونها زوجة بالعرف الصارم.. فمحدودة العلم كيف ترقى كل هذه الدرجات؟

اقترحت عليها سوناتا أن تلتحق مريم بمدرسة لتعلم اللغة الألمانية، وسوف تجد لها فرصة بسعر مناسب.. وتواعدن على اللقاء بصفة شبه دورية أو كلما سمحت الظروف، طلبت بطريقة شبه مباشرة أن تكون بعض هذه اللقاءات في البيت عندها..

كانت تلقي لأميمة بالسؤال تلو الآخر، ولكي تفر منها أميمة بأدب وتلفت نظرها قائلة:

"لن يروي ظمأك وسؤالك إلا عمر فهو صاحب نظرية وابن فقيه لغوي".

سوناتا شابة رغم أنها تجاوزت الثلاثين! ولا يبدو أن ملامحها في خطر، كما يحدث عندنا.. ظلت تحمل أسئلتها حتى استطاعت أن تبدأ في إلقائها في طريقي واحدًا تلو الآخر، وأغلبها كان محصورا في زاوية النساء والدين بمعنى أدق وأكثر تحديد... "حقوق الجسد بين الفكرة والعادة أو...".

كان أول مرة نلتقي بسؤالاتها في قاعة اجتماعات صغيرة محدودة العدد؛ فلقد كانت القاعة عبارة عن غرفة، ملحقة بالفندق بها صالون على شكل نصف دائرة.. لكي تستطيع الدخول في الحوار معنا، فهي صاحبة الدعوة بدأت بالجملة المقررة على لسانها دائما:

"ما أسعد نساء الشرق بكم وبأهلكم!".

عندما حضرت الساقية بالمشروبات، كانت مندهشة فالليله ليلة العطلة وأغلب الطلبات معها قهوة بأشكالها إلا طلبًا واحدًا لسوناتا.. أحست سوناتا باستياء البعض منذ طلبت "النبيذ" فكانت تبرر ذلك بأن البرد جعلها تعتاد على شرابه، وهي لا تكثر منه فما تطلبه أقل مما يتناوله السائق المحترف حسب القانون (بعضكم هنا يشرب الخمر، وله سند أن نسبة الكحول في الخمر منخفضة، بالإضافة لأن هذا عصير يعتق بطريقة ما ليصل إلى ما هو عليه، بالإضافة إلى...) كانت تلتمس لنفسها العذر بأننا مثلها

نجالس الخمر ثم عادت لحوارها الأصلي: "سترون أني لن يفلت مني زمام الحديث وسأظل يقظة حتى الصباح على الرغم من هذا".. كانت ترفع يدها بكوبها.

كان صلاح قد تناول شرابه المثلَّج واعتذر واتجه لأعلى بصحبة زوجتة مريم، وظنت سوناتا ولمحت إلى أن صلاح غادر سريعا من أجل مريم، كانت تضحك برنة شقية، وتلمع عيناها بخبث وهي تقول:

"ما أعجب عاداتكم في الشرق! أود أن أفهمها".

ثم اتجهت بنظراتها نحوي كأنها تطلب دخولي معها في الحوار وخلال صمت الجميع تلقيتها، وأخيرا علا وجهَها تعبيرات الارتياح حين وجهتُ حديثي لها، معاتبًا:

"إذا أردت الفهم فاحتفظي بعقل يقظ واع وتخلي عن هذا.. فأحد أسباب انصراف صلاح أنه لا يشارك في مجلس به خمر".

سوناتا: ستجيب عما أطلبه منك الآن إذن.

كان بها شيء من نشوة.. ناولتها أميمة بقية كوب من القهوة التركية السوداء..

ـ سأجيب حتى يحين ميعاد النوم.

ـ أميمة قالت لي: إنك أكثرهم دراية وإلماما بجوانب الموضوعات التي أسأل عنها "هر= سيد" عمر.

- خدعتك أميمة من ناحية، وبالغت من أخرى.

- لا، خبرني بالصدق عن معنى الرغبة في حياتكم.

- لو كنت ببلادي لزجرك الناس بسبب سؤالك هذا.
- أليس هذا حقا لي يجب أن أعرفه؟
- نعم، ولكن تعرفينه سرًا على يد أم، أو أنثى أكبر في البيت فهذا أحد أدوار الأم.
- أما أن أمارسه، فلا بد من أن أكون زوجة!
- بالمثل كم منا يستطيع شراء سيارة ولكنه لا يفعل إلا عندما يحصل على الرخصة، فالعقد هو الرخصة التي بها أستطيع أن أقود سيارة أديت ثمنها.
- أي إنك تشتري...! "كانت نبرات صوتها به شيء من الخبث".
- دخلتُ مقاطعا على عجل.. هذا مثال من دنياك فقط أردت به تقريب جزء من المعنى.

صمتت وعيناها تفضحان عدم فهمها، أو قل عدم تقبلها للحوار بمعانيه المستترة.. وجهت حديثها لأميمة هذه المرة، وكانت تلمح لأنها تود أن تتزوج من عزت هكذا بصراحة فهل تسمحين لي؟

هنا أخذت أميمة تبعث بالمكان رائحة بعض الفكاهة، فلقد هتفت قائلة:

"والله كنت أذبحك أنتِ أولا، ثم هو ثانيا، لا داعي لهذا الحديث، أقطع لسانك لو أنك قلت هذا أمامه مرة ثانية"..

ضحكت سوناتا بصدق من دعابة أميمة وإشارتها التي تدل عن معنى الذبح لعزت وقالت:

- هكذا مباشرة، القتل لمجرد أن تزوج من أخرى أي أخرى.

أميمة: آه، لمجرد أنه تزوج، ولِمَ؟ أهو قادر على واحدة لمّا يقدر على جماعة، أنا أعرف أن مناك في هذا، ولكنك والنبي لن تناليه أبدا.

ضحكنا نحن فقط، لأن أميمة كانت تتكلم بالعربية، وهي تنظر إلى عزت بدلال الواثق.

تدخل عزت أخيرا قائلا: "ليس الجسد هو الأساس، ولكنه أحد الأركان في الزواج".

تناولت سوناتا شرابها، معلنة رغبتها في إيقاف هذا الاشتباك والتداخل في المعاني وهي تقول:

"يبدو أن المعنى عندكم متداخل، أو متشابك، في هذا الموضوع، أو لأني أنثى فلن أنال إجابة ترضيني".

صدقت على قولها، وصفقت لها لأنها اختارت المعنى الحسن الدقيق "التداخل" لا المعقد كما هو شائع.. كان عزت قد انصرف إلى الهاتف يسأل عن صلاح، ويعلمه أن السهرة قد انتهت هنا بالتراس.

كنتُ قد أكدتُ على كلام سوناتا، ثم اتجهتُ نحو نافذة تطل على الميدان لأقف خلف زجاجها وأتطلع إلى سماء داكنة مخيفة، فتذكرت ليل السماء العربية في الشتاء الدافئ الحاني.. أحسستُ بأنفاس سوناتا قريبة مني فوجدتها تقول:

"هل أبناء الشيوخ عندكم، هكذا دوما حالمون يبحثون عن اللا مكان؟!".

سكن نظري على وجهها لحظة وأنا ترن في أعماقي فكرة وسؤال..

"لماذا يكون الدخول إلى الشرق من باب المحرمات هو المتاح والجذاب؟!".

لكأن (المحرمات) هي السر في سحر الشرق.. وكم كانت مفاجأة لنا ونحن نراها تتسلم فاتورة بالحساب فلقد كانت الأمسية على حسابها الخاص.

انتهت الرحلة وعدنا إلى المدينة، وقد زادت الصداقة بين سوناتا وأميمة، بلا سبب أو تعليل، كأنه ارتباط أبدى وأزلي بين الضدين.. فأميمة تحرك السؤال في ذهن سوناتا والعكس لم تلمسه من أميمة.. وفوق هذا كان هناك طائر يخفق بجناحيه على مهل فوق رأس أحدنا، ويجذبه نحو سوناتا، ويطرق باب قلب سوناتا بشدة.. أما سوناتا فكانت صدى إجابات عمر ما زالت عالقة في رأسها.. بالإضافة لأن سوناتا تحررت من بعض أسرارها أمام أميمة، فعطفت عليها هذا العطف العربي الفياض غير المبرر أحيانا.

(٥) خطوات على الطريق.

ظللتُ أسأل نفسي: هل كانت سوناتا قد تدخلت في حل مشكلة السكن من أجلى أو بغرض المساعدة فقط؟! فمنذ أن عدنا من الرحلة، و أنا قد كثرت صدف اللقاء بيننا وبدأت أيضا أقوم بزيارات لمكتبها، وكانت في البداية تحت ستار استفسارات ومشاركات في وقت الغذاء حتى بداية الفترة التالية.. ويبدو أن محاولة إلمامها بخيوط الشرق جعلتها تدخل في لعبة الغزل العفيف لتستمتع بها، وتتمسك بها..

"هن.. دوما هن". فلكل نداء رنين، ولكل جواب شهوة، ولكل نسيج رَوْنق.

حاولت أن أستكشف من أميمة بعض أخبار سوناتا... كطبع الشرق يلتوي حتى إن كان الطريق المستقيم متاحا، ولعله الخجل!

لم تصرح هي بالكثير غير أنها زوجة معلقة فلقد فر منها زوجها، وهناك مساومات على الطلاق... وبالتأكيد طالتنا بعض سهام أميمة عن الرجال وطباعهم.

"سوناتا كانت بالأمس في صحبة أميمة بحثا عن الدراسات الأوربية المتاحة لها هنا –وسألت عنك وعن طباع الرجال– مصرحة بأنها تلمح في حوارك، وفي عينيك وأسباب زياراتك... معاني أخرى كثيرة، ولكنك لا تدخل عليها مباشرة.. لماذا؟".

و ابتسمت أميمة وقالت: عمر، لم تكن هكذا، من قبل مكشوف الفؤاد، أم أنها خيالات أنثى مهجورة تعانى الوحدة؟.. عمر، أنا أعلم أنك فوق مستوى الشبهات، ولا يجول بخاطري أنك تبحث عن التسلية والمغامرة؛ لأنها نارقد تحرقك، سوناتا ترى في خجلك هذا أمورًا أخرى.. إنها تقول:

"أهذا عيب على رجالكم؟ إنهم بالتأكيد يعانون من بعض الخوف المرضي، أو إنهم أصحاب كبر، وفي كلا الحالتين فهم أشخاص معقدون، هل وجب علي أن أصرح له أنا؟ وكيف؟ ومتى؟".

هكذا سقط سر سوناتا في يدى عن طريق حوارات عزت وأميمة... لقد فهمت سوناتا بعض ملامح الرجال عندنا... فهي تسأل أميمة عن طريق المصارحة..

أما يوم الخروج من مبنى الخدمات عندما أعلنت أني ضيفها حتى لا يظن خصمي أنه انتصر علي.

"لا يحب الرجال عندكم التسليم بالهزيمة على المستوى الشخصي".

هذا تعليقها عندما حضرتُ معها في السيارة إلى الفيلا.. لا بد أنها وجدت في هذه المشكلة الفرصة المواتية لكي يصرح كلٌّ منا بما يُخفي، أو بما يكن في نفسه.. وقفتُ على باب الفيلا من الداخل، وهي تشير إلى حجرة في المواجهة لكي أستخدمها، وصعدت السلم جريا.. هل تخلت عن وقارها أو...؟

ما زلت أذكر أني بحثت عن الحمام، وداويت حرجي بالماء.. فما كدت أنزل بالمنشفة عن وجهي حتى وجدتها على الباب متجهة إلى منتصف

الحجرة.. فقد تحررت من زي الشتاء.. بالتأكيد هي هكذا على طبيعتها لا تقصد شيئا.. هكذا أقنعت نفسي لأن هذا هو المنطق.

كانت تدعوني للعشاء، وتوضح لي بعض المتعلقات بالمنزل ونحن متجهان إلى المطبخ.. لفت نظري أنها ليست بالبدينة ولا بالضئيلة.. إن نطقت بالعربية فهي شامية.. لقد كنت أختلس إليها النظر وأحست هي بهذا فبدأت الحوار حول السكن، ومشاكله.. وكيف الحل؟ ثم توقفت وحدثتني بحدة:

يا سيد عمر، انظر لي وأنا أخاطبك.. لا تنظر لي سرقة كأنك تستعرض نحتا في معرض، وليست هذه المرة الأولى التي أجالسك فيها.. أم أنك تفكر كعادة أهل الصحراء.

حاولت أن أرد، وقد أصعقني آخر كلماتها فرددت عليها قائلا:

أهل الصحراء! أي صحراء، ولكن كيف يفكر أهل الصحراء؟ إذا كانت أفكارك أخذتكِ إتجاه الرغبة فهذا يحدث في كل مكان، ومن يرغب يجد دوما مبررا للسرقة.. ويجيد في أساليب السرقة.. أما عن نظراتي.. فالعذر لي، فهذه أول مرة أرى كل هذا الحسن وأحاول أن أكف بصري، ولكن ذنبي أني صاحب حس، وكلما حاولت أن أدقق النظر تذكرت أني لا أملك الحق في هذا الجمال...".

لم أستطع إكمال الجملة الأخيرة ولم تطلب هي إكمالها.. وغادرت مسرعة لأن هذا هو ميعاد نومها.. قمت واقفا وأنا أتلو قوله تعالى:

(ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم).

شرعت في الصلاة.. سمعت وقع أقدامها عند الباب.. إنها بالتأكيد ترقبني.

تعجب الشرقيون من جرأة سوناتا، ومن موافقتي لها.. كان علمي بنفسي خيرا، ولكن البعض كان ظنه في غاية السوء.. من لم يشطح به الخيال حذرني من أن ثالثهما الشيطان.. هذا حق.

أكدتُ عليها في مكتبها على إيجاد حل سريع لمشكلة السكن..

"هل ضاق صدرك بالإقامة عندي؟" كانت تسألني..

علمي بأنها زوجة معلقة جعلني أفكر في أنها تبحث عن من يشاركها الوحدة أو أنها تبحث عن زوج جديد!

أخذت زمام الحوار مرة أخرى مني، فاليوم صعب لأنها ليلة الإجازة والسهر مباح، وكل شيء عندها مباح.. كيف سيكون الحال؟ سأصمد.

"هل ينظر كل الناس في بلادك إلى من تزوج بأجنبية بشيء من الريبة؟". سوناتا تسأل.

ألجمني السؤال، و أفزعتني كلمة الريبة، فأعادت السؤال مؤكدة على كلمة الريبة.

أجبتُ على مهل: بالتأكيد هو موضع حسد.. وخصوصا إذا كانت الأجنبية من بنات اللغة الألمانية.

- أحيانا تكون منافق خطيرًا، متلاعبًا بالكلمات، بشكل جذاب يفاجئ من يحاورك، على كل حال سوف أضم هذه الملحوظة إلى سجلك الشخصي.

كنت أحاول مداعبتها من باب الشفقة، ورد الإحسان بالمثل.. أو على الأقل أن أكون شاكرا..

لقد زادت الجراءة والحسم و اتخاذ القرارات جمال ملامحها بريقا، إنها فرصة لا يفر منها رجل أبدا! ردني إليها رجاؤها... "بأن أجيب عن باقي أسئلة يوم الرحلة".

بدأت المواجهة الصعبة عقب العشاء مباشرة.. اعتذرت أولًا عن كأسها..

"انظر سأكمل الباقي بالماء لتكن عادتي نصف المباح قانونًا".

ابتسمتُ متأففًا.. فكيف يحكم الضيف على صاحب البيت؟

أخذت تعيد عليّ مشكلتها مع زوجها الهارب.. هل هي تعيدها قهرًا أو حبًا؟! كدت أشم رائحة الاثنين معا حين قالت:

"المشكلة أن الرجال عندنا أصبحوا يهابون الدخول في شراكة الزواج الرسمي خوفًا من حسابات المخاطرة والخسارة.. أهو هكذا عندكم؟ لا أظن".

كنتُ أود أن أرد، ولكنها أكملت بعد أن داعبت كوبها..

هل صدمك التعبير أو أخافك؟ –أنت لن تجيب– فالرجال لا يجدون ما يُلزمهم أن (يشتروا سيارة كما قلت) ما داموا يستطيعون استئجارها! ولهذا يفضل الرجل أن يرتبط دون عقد ليسهل الوداع، وحتى لا يخسر حريته وتزداد على كاهله الأعباء.

استوضحتُ الأمر:

- هل أنت نادمة لأنك دخلت في ارتباط رسمي؟

- ما كنت أندم على قراري هذا قط.. وما كنت أستطيع أن أدخل في زواج غير رسمي.. هل تدري أن من لا تدخل في زواج غير رسمي قبل الزواج قد لا تتزوج؟ ومن لا تدخل في دنيا الرجال كامرأة تسب بأنها... (أنت تفهم ولا داعي للتصريح).. مرت ريح الحبيب، وتربصت بي..
- إني ما زلت في وعيي كما ترى.. ما زلت أذكر يوم الرحلة..
- أتمنى أن تتركيها للأبد، ولكن خطوة خطوة.
- الطبع الغالب عنكم في الكتابة هنا أن رجالكم يأخذهم الوجل من أن يقيم منفردا مع امرأة.
- هذا حق.. لأنه في بلادي حرام.
- آه.. ماذا تُراك تظنّ بي؟ ولكن هذا عندي ليس أكثر من كونه صداقة وحرية حتى إذا وصل إلى ما في رأسك فهو أمر مقبول ما دمنا قد تجاذبنا.

"هل هذا نوع من التلميح لشيء أو أن حالة النشوة قد بدأت تلعب بها؟" هكذا حدثت نفسي فحاولت أن أوجه الحوار إلى ناحية أخرى.. فقد سألتها عن:

"سر تعلقها بالشرق الواسع.. ومعنى الواسع".

- ضم على بلادك أهل الأناضول، وبلاد فارس يكون الواسع.

وارتشفت من كوبها رشفه على عجل ثم أكملت: ليس هناك سر غير أنه منذ أول فوج إشراف لي، و أنا ألحظ الالتزام بالأخلاق.. والفضيلة الصارمة، هذه الروح عندكم تسمى الدين.. وهي دومًا معكم في صدوركم لا تفارقكم أبدًا للحظة.. ولو حدث لظهر عليكم معنى الندم وتعبير الأسف كأن الدنيا قد

زالت.. ويا ليتها.. لأصل للجنة.. وأدع شقاء الدنيا.

أخرجتني حالة الضيق والتبرم التي عليها سوناتا عن شعوري، وذكرتني بمعاناة بنات الوطن وكنت أحدث نفسي بهذا..

- بماذا تحدث نفسك يا عمر؟
- جاوبتها على عجل: أتعجب إن كان في دنياك معنى للشقاء!
- الشقاء معنى، وله أشكال متعددة فلكل إنسان شيء ما يذكره بالشقاء.. أليس تطلعي لرجل و انصر افه عني شقاء؟!

وأطرفت عينا سوناتا، وكتمت الدهشة، والسخرية بداخلها، وأشاحت بيدها، ودلكت كوب الخمر بين يديها، و أكملت كلامها:

أليس في متابعة وصداقة المصري وزوجته لي شقاء؟ إني أتعجب من معاملة أميمة وعزت فهناك شيء يتجاوز الجسد.. ودومًا لا أدرك ما هو؟ لأنكم جميعا تخافون الحديث عنه.

- وهل هذا الخوف يعجبك أو لا؟!
- لم أقرر بعد، ولكنه شيء جذاب.
- أنتِ لم تحسي ما في الأمر.. ليس خوفًا و إنما رحمة بأسرارنا وعقول بناتنا.
- ما دخل العقول؟
- كل شيء أصله عقل حتى هذه، والعقل يواري السر حياءً.. أليس الجمل وهو الحيوان يستحي من هذا؟

ساد الصمت بيننا لحظات كأن كلانا يبحث عن باقي معاني الحالة التي هو عليها.. خرجت سوناتا من صمتها مرة أخرى..

- بالتأكيد سوف أفهم المعنى منك أو من (فراو المصري) لقد ضحى بكل المميزات المالية له لكي ينال فرصة السكن في ضفاف النهر لأن أميمة كانت تود هذا، فيسعى لإرضائها، بكل جهده ومدخراته.. إذن الصورة التي كانت في خيالي عنكم بها من الخطأ الكثير، ولا بد من إعادة صياغة أفكارنا عن الرجال في بلادكم.

لقد كان عزت المصري وزوجته مثالا للتوحد في درب الحياة.. والتفاهم والرضى وبذل الجهد للآخر.. ولذا فقد كنا محط نظر كل من يبحث عن زوجة يتمنى عروسًا مثل أميمة.

قطعت عليّ سوناتا حبل أفكاري وهي تقول:

- هل أميمة في بلادك يقال عليها جميلة؟

ضحكتُ واعتدلتُ على المقعد وأجبتُ:

- أما أنكِ قد سألتِ.. فإنها في نظرك دون هذا الوصف.. ولكن جمالها في طبعها وعقلها الأخاذ اللين.
- أستشعر أن أميمة إذا كان في مقدورها العمل هنا لفعلت.

وكانت متجهة إلى الدور العلوي عقب انتهاء الحوار، وهي توضح.. عليّ أن أستعد لكي أسكن بين الناس.. فهذا هو أفضل حل.

طال بها النوم، وعند منتصف الضحى، وجدتها في الفناء الخارجي تفتح بابا جانبيا يفضي إلى الدور العلوي مباشرة.. اتضح أنه سلم لشقة صغيرة يمكن أن تستقل عن الفيلا، وهي تعرضها للإيجار دومًا لتجد بعض العون على أعبائها المادية.

كانت تعرض الشقة دون أن تلح عليّ.. حاولت أن تجد الجواب في ملامحي، ولكني هربتُ من هذا السؤال غير المعلن، متصنعا الدهشة واستفسرتُ منها:

- أي أعباء مالية عليك؟

وجلست بالتراس الملحق بالشقة.. فلقد كان هذا اليوم دافئا كأيام بواكير الشتاء على الساحل المتوسطي، لكم أحب هذا الجو ولكن لا أطيقه! غابت لحظة وعادت ومعها صينية بها مأكولات خفيفة، وترمس القهوة قائلة:

"طباعك متنافرة –لا أمازجها– كصيف الشمال".

وبصوت مرتاح ونفس مسترخية.. سألتها: "مرتبك.. كادر خاص.. فلماذا الضيق؟".

عادت لذكر الحبيب كمن يتلمس الدواء بالداء..

"زوجي الهارب اشترى هذا البيت بضمان بنكي كحصة في شراكة الزواج واستأجر النصف الآخر من الشركة المالكة فكنت أسدد أنا الإيجار وهو عليه الضمان.. وعندما فر... بحث البنك عن ماله... فقمت أنا بالسداد تحت الحساب المشترك.. وصرت أنا في نظر البنك زوجة رسمية لها الحق في الإقامة مع إعادة الجدولة، وهذا هو السر في المماطلة بطلب الطلاق من جانبي، إنها الفيلا وما دفعت فيها من أموال كأسهم باسمي في البنك".

كان الواجب أن أتبع هذا بسؤال عن الزوج لماذا هرب؟ ولكن أحسستُ أن الفواصل في المعاملات المادية من ناحية.. وسقطة مالية للرجل جعلته لا يطيق، ففر بانكساره حتى حين، فأمسكتُ السؤال.

كنت أشرب القهوة على مهل، وأجول بنظري حول البيت في أفق ممتد.. فالهيكل الموحد لم يحرمني لذة الاستمتاع بالفراغ، وزاد هذا من انشراح صدري، وجولات عيني حتى التقتْ نظراتي مع نظراتها.. لقد كانت تتملى في وجهي كأنها تحاول فهم ما أنا فيه... أهو من التعثر المادي.. أم هو استمتاع بحالة المهادنة الجوية؟!

داعبتني... لماذا صمتك المفاجئ؟ هل في نفسك شيء تستحي أن تقوله؟

- بصدق نعم.. كيف كانت الحياة بينكما؟!
- ليست كمريم وصلاح، أو أميمة وعزت.. ولكنها ككل أهل البلاد فيها الحد الأدنى للحياة وأحيانا تزداد حماسته ناحيتي بشدة حتى ذهبت كلها أو أغلبها، وبدأ يتسرب إليها الملل.. أو كما قلت أنت: (ندرك حاجات نسائنا قبل التلميح بها)... بالحق هو لم يعد يفهمني ولا تلذ لي إقامته... نادت بصوت مسموع وفجرت في وجهي سؤالا مدويا..
- (هر عمر) لو كنت أنت مكانه فكيف تعالج هذا الملل؟!
- (مترددا) الحق لا أعرف من أين يأتي الملل في بلادكم هذه؟!
- لا تفر من السؤال تحت ستار الخجل الشرقي.. لأنك تخاطب امرأة.. دع عنك هذا القناع الزائف.. وأكملت ضاحكة وهي تشير إلى عيني:

أنت أمكر من ثعلب فلك نظرات خبيثة طامعة تتعدى حدود...

كنت أذوب في الكرسي من كلامها.. وبحدة وخوف الهزيمة ورد الصفعة سألتها:

- إذا كنتُ زوجك ونظرتُ لك هكذا ما هو قرارك يا شمس الدفء؟

كانت الدعابة في نهاية الحوار مداراة للحدة والغضب في بداية الكلام وكسب بعض الأرض.

- لا أفهم معنى وجدوى لهذا.. (ثم ضمت يدها على صدرها).. وأكملت:

و هذا أيضا أحد أسرار الشرق من التشابك والتراكب... أم هو ضيق الأفق، وقلة الحيلة وسوء التعبير، و إفراط في مقدمات لا داعي منها؟

- حقا لا داعي منها ولكنها أحيانا مبهجة حتى ولو كانت دعابة هكذا...

"عبثتُ بسبابتي في راحة يديها للحظة".

- أهذا منطق الشرق أم تعاليم الشرق المقدسة؟

- لا فرق، فالمنطق والتعاليم وجهان لعملة واحدة... عندنا بالمناسبة.. لأن أدبر ساعة كهذه معك ألستِ زوجتي فرضًا؟

كنت أهز رأسي مستفسرا..

ضحكت: نعم بالتأكيد أراك مصرًا عليها.

ثم قدمتُ لها (فنجان القهوة) بأدب مبالغ فيه.. وأكملتُ:

- وأن أقدم لك فنجان القهوة هكذا على سبيل المثال أسبوعيًا يدفع عنا الملل.

- أهذه تعاليم الشرق؟

- نعم.. تعاليم الشرق، ولكن لا أحد ينفذها، ولذا يجب أن آخذ هذا.

فقمت بسحب فنجان القهوة من أمامها وضرب يدها بخفة قائلا:

- "كخ، كخ".

رددت اللفظة وهي تضحك باستمتاع، وحيوية، ونفس صافية خالية من الهم.. هبت تيارات هوائية باردة تعلن عن انتهاء حالة المهادنة مع الطقس.. فهبت سوناتا و اقفة تحمل صينية القهوة وتناولني إياها قائلة:

- أيمكن لزوجي الحبيب أن يحمل هذه فقط عني؟
- بل حسب تعاليم الشرق سأحمل عنك الاثنين.

واتجهتُ بهما إلى المطبخ بأسفل الفيلا.. وقفت سوناتا على الباب، وفي الطريق إلى حجرة المكتب سألتني بعزة ممزوجة بأسى وحسرة: "لو أني بلا زوج أترضى بي زوجة؟".

أسعدني السؤال –بلا شك– فمن يرفض عرض امرأة مثلها.. من لها حظ كحظ سوناتا؟! هي في الجمال فتنة.. ولعقلها منطق وحكمة.. ولطباعها جرأه برشاد.. كما تنادي الصدى يجيبك.

طال صمتي، و أنا أذكر كمصري مثلنا العامي الشائع "اخطب لبنتك...".

"هل يجب أن أدور أمامك هكذا لمجرد أن تجيب عن سؤالي؟".

كانت قد فردت ذراعيها، ودارت فعلا أمامي.. كنت ما أزال في حيرتي من أسيرة الشرق.

- ليس الصمت إلا بسبب لن يرد على ذهنك أبدا، وهو أن ما تفعلينه الآن هو من تعاليم الشرق.. بشرط أن تكوني حرة.

صرخت بدهشة مستوضحة الأمر: آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه.

وبعجل أكملتُ:

- نعم.. ولكن كل الشرق ينكره بل ويحقره.

- إنها الازدواجية العجيبة.. على الرغم من كل هذا لم تجب عن سؤالي.. أعلم أنكم دوما تفضلون العذراوات..

ضحكتُ بصوت رنان ثم سألتها:

- من أين لك بهذه الأفكارعن العذراء والزوجة الأجنبية؟ ثم أي شرق هذا الذي ترصدينه..

ومن أين تشاهدينه.. وكيف تفهمينه؟

- أكل هذه أسئلة في نفس اللحظة؟ ما هذه السرعة!

ثم خرجت و اتجهت إلى الصالة وأدارت التكييف.. لاحظت ساعتها أنها في ثياب الأمس.. زيها القصير الأزرق الشفاف.. هل هي تختبر مبادئي؟...أو تداعب ذكرياتها بقدراتها.. أو ظنت أن دعابة التراس مجرد بداية لملاطفة أكثر؟ لا أظنها تفكر في هذا! هي فوق كل هذه الظنون.

كنت أود أن أرى نفسي في مرآة.. هل بدت ملامح الاضطراب.. أو ملامح الخوف والطمع؟!

تذكرت أن... (لا أذكر صاحب النصيحة) ثالثهما الشيطان.. نعم علقت بهذا وناديتها:

- سوناتا هل تعلمين أن ظن أميمة فينا سيئ للغاية؟! (رسمت عقب السؤال ابتسامة على وجهي).

- اندهشت سوناتا من سؤالي وسألت: لم هو سيئ؟

كانت تتكلم ببساطة شديدة، وبراءة ألجمتني بعض الوقت حين قالت:

- لا أنكر أني بحق لأول مرة أتذوق حلاوة تلك المشاعر وأحس جمال اللحظة التى لا دخل لأحدٍ فيها... دعك من هذه القيود!
- كيف هذا؟ و أنا أرى فيك أحد قيم الجمال، وصور الرب.. فهل لي أن أدنس هذا الجمال أو أدخل ساحة الرب بلا استئذان؟

وصمتت لحظة، ووجمت تعبيرات وجهها لحظة ثم قالت:

- على كل حال هو حق طبيعي لكل إنسان، وتعبير عن عواطف دفينة.
- حق الجمال، يا فاتنة، هو الصيانة والحماية وليس تركه عرضة للسرقات.
- الصيانة والحماية، نفس الكلام الذي يردده المهاجرون العرب في فرنسا، وكلمات تركيات آخن وإيرانيات ميونيخ، وهذا الإصرار على الزيّ البدائي المترهل، وهل الحماية بالأزياء؟ وهل التخفّي يعطي الأمن؟

(كانت ألمانيا ونحن ندرس بها في ذلك الحين على وشك الاعتراف بشعائرنا الدينية.. ولكن ذهبت الفرصة للخلاف بين الشيعة والسنة من ناحية.. وبين مذاهب السنة، وفضل الاتحاد الألماني تأجيل البت في أمر الاعتراف حتى يتوحد أمر الجالية).

لماذا دائما يكون في الستر مشكلة؟! لم تفهم سوناتا السؤال.. فأكملتُ لها:

- أليست أوربا بيتا فسيحا للحرية؟ فليكن زيهن كما يشأن.. إنها الحرية.. أو ليست الراهبات صاحبات غطاء للرأس؟!.. ثم أشرت إلى صورة كبيرة في صدر القاعة قائلا:
- صورة من هذه؟

- ماريا.. (أجابت سوناتا).
- عليها وعلى وليدها السلام، أليست صاحبة غطاء للرأس؟

كانت الرجفة في صوتي تؤثر على جملي وكلماتي فبعضها يخرج متقطعا.. أما جسدي فقد كان صدري يعلو ويهبط بشدة، وقلبي تسارع في خفقانه لما كنت أكتمه في نفسي من السيطرة على ذاتي حتى لا أخرج عن نطاق العقل، أو الحكمة، وحتى لا أجرح السيدة صاحبة الفضل.

كانت سوناتا قريبة مني عند نهاية الحوار، وهي تبدي لي ملحوظة:

- عمر.. أنت لم تتحدث معي أبدا باسم دينك، لماذا؟
- لماذا؟ لأن الدين جمال و أفكار ومعاملات.. وهذا ما يصدر عنك في طباعك، و أفعالك.. ثم يأتي بعد ذلك ما تلمحين له بذكاء!

دقت الساعة معلنة الرابعة، فتوجهت سوناتا إلى المطبخ لإعداد الطعام. سئمت الجلوس في هذا الفراغ المترامي، فقمت ودخلت عليها المطبخ عارضا عليها المساعدة في الظاهر، وأرى هل صدر مني ما أحرجها!

"ألم أقل لك أنت متنافر في مجملك.. تفر مني، وتطاردني، وترمي الكلمات، وتلاطف.. وتجرح، وتكتم في صدرك.. من هو سيد طباعك في كل هؤلاء؟ نسيت أهمهم، عمر جامد المشاعر".

كانت سوناتا تخاطبني وتتحرك بسرعة، وعلى عجل بنظام دقيق دون أن تنظر ناحيتي... فسألتها:

- هل لمست حقا جمود مشاعري طوال هذه المدة؟! فأنتِ أحد قيم المساندة، والصبر على الوحدة.. فمعك أعرف معنى التآلف واستنشاق روح الحياة.

- آه.. ما أدهشك في بناء الكلمات! ولكن حقًا أتيت هنا للمساعدة فقط؟!
- نعم للمساعدة. (قلتها كأنى أنفيها وأؤكد معنى آخر).
- إذن عليك بهذا.. (وناولتني طاسة لقلي البطاطس)، بالمناسبة أهذا من تعاليم الشرق أم لا؟
- بالتأكيد هو من تعاليم الشرق، فوقت الفراغ لنساء البيت نساعدهن به إذا تمكنا.
- يا ليت الهارب سمع أو فهم هذا.

كانت تضرب على وتر ذكري الحبيب التي لا أظنها أكثر من لهو صبي بفكرة عظيمة.

الآن بدأت أطهو البطاطس، وأمس النار، وأذوق لسع النظرات، وزفرات الحسرات.. أعدت المائدة كما يجب، وسارعت إلى الحمام السفلي ثم خرجت في زي متأنق بديع.

"هذه المرة كان أخضر اللون يتلامس مع شعرها الأحمر عند الأكتاف، واتسعت فتحة الصدر على شكل نصف دائرة أمامي.. ألقت ببعضها إلى الخلف وتلاشت أكمام فستانها..لا أدرى كيف ارتدته؟! من شدة الحبكة عند القد.. لم أتابع أكثر من هذا.. على طرف المائدة استدارت أمامي، وسألتني أن أغلق لها (السوستة) بالخلف".

كنت أبتسم وأنا في غاية التصبب خجلا.. أما البسمة "لأنهن دوما هن بالعربي أو بالألماني". والعرق كان من صعوبة الجلوس والحوار مع هذا الجسد! كانت في حالة من الصفاء النقي الخالص، والارتخاء، والتجاوب العذب، بدأت تأكل على مهل وبشهية ونهم وتتطلع ناحيتي برقة، ترغب في فتح باب الحوار لتصل معي لبعض سعادتها ما دام هذا هو المتاح أمامها.

مدحت لون الفستان فقط.. وسألتها: هل هذا اختيار الهارب؟!

ردت معتذرة بأنها لن تكدر صفو مسائها بحديث عن امرأة غير حرة.. إنها الآن تستمع على الأقل بصديق يقظ الضمير دافئ الوجدان.. فأقل ما يجب نحوه ألا أفقده شهيته.

- سألتني: هل أجيد الطهي؟
- أجبتها: لم أعلم حتى الآن بأم ألمانية فاشلة إلا الندرة.
- النساء عندكم أمهات أو خا...

أخذتُ زمام الحوار حتى أقطع عليها أفكارها عن نساء الشرق.. لقد مل لساني الحديث عنه وذهبت كل مفرادتي الألمانية... قائلا:

- فرضًا أنك زوجتي..

نظرَتْ مترقبة ورأسها لأسفل.. ثم أكملتُ:

هل تقبلين دعوتي على نزهة ليلية لك أن تختاريها؟! جمدت سوناتا لحظة.. ثم استغرقت الفرحة كل جسدها وهمست:

- أجاد أنت في دعوتك؟ أم إنها... (قبل أن تكمل).
- هل كنت يومًا كاذبًا أمامك؟!

ألقت أدواتها وسألتني عن مستوى الإنفاق في الدعوة.. حتى لا ترهقني وتختار كما يجب.. لم يقف الأمر عند هذا الحد.. لقد سألتني:

أي زي تحب أن أرتدي؟

إلى هذا الحد تهوى لينًا طواعيةً... أهذا من وحي مشاعرها... أم عاداتها... أم إرضاء فكرى؟

بهذا حدثت نفسي وأضفيتُ على الموقف روح المرح، فهببتُ و اقفا كأني شاعر قائلا:

"الزهور زينة البيوت لا العكس، ففي أي زيّ ظهرتِ ملكتِ الحضور".

أخذت طريقها لأعلى، وهي في غاية النشوة، وداعبتني بقبلة من يديها عبر الهواء.

يبدو أني أسرفت، هذا المقام لا مكان فيه للقوي، الغريب أنها دوما طرف سلبي معي تستقبل فقط ولا تبدأ هي بالملاطفة!

(٦) اليوم الصعب.

أدركتُ معنى أبيات امرئ القيس و أنا ببلاد بعيدة عن لسان القيس فالليل هنا طويل جدًا، ما أسعد صلاح وعزت! حينما أصرا على اصطحاب أسرتيهما إلى هنا، لكي تجد من يواسي حينًا أو على الأقل يخاطبك عندما يذهب هدوؤك فيرد لك الثقة بالنفس، ويطمع في اللقب الجميل عند العودة..

اليوم عندي نصف يوم دراسي، فقد اجتزتُ فصول هذا الموضوع بالعامين الأولين، وطلبتُ إعفائي منه عند دراسة الدكتوراه، وقد كان بمنتهى اليسر، ولذا سأعود للمنزل اليوم مبكرًا جدًا.. كيف استطاعت سوناتا أن تغادر في الثامنة تماما؟ على الرغم من رقصها لمدة ليلة أمس!

"لماذا لا ترقص، وتتحرر من قيودك، إنها فرصة لتعبر عن سرورك!".

كان أهم أسئلتها ليلة أمس، دائما تسأل لا تكفّ عن السؤال، دعوت الله بحرارة أن يلهمني الحجة، وليهب لي الصبر والحيلة، على تربصها بأفكاري ويثبت إيماني بالعفاف، فاليوم يوم الالتزام، الشيء المؤكد الآن أن طعم السؤال قد تغير من موقف المتصيد لهفوة أو تعبير خطأ ناتج عن نقص في المعلومات.. إلى سائل يطلب المعنى للمعرفة والتدبر، لا أستطيع مجاراة كل هذه الحكمة بالمعنى الشرقي ("البصيرة" اللماحة). سمعت صوت غلق الباب الخارجي للفيلا، لقد عادت مبكرة هي الأخرى.

"لم يكن في متعلقاتي غير إجراءات بدل السكن لك، وقد تمت... واستأجرت سيارة لنقل محتويات دولابك بالمبنى الخدمي على أن تكون هنا يوم السبت مساء"..

هذا مجمل حديث سوناتا، وهي تتنقل بين صالة الفيلا والدور العلوي، ثم استقرت أخيرا بالمطبخ، وعادت ومعها خطاب من البنك يعلمها بالموافقة على استئجار الملحق العلوي (الصغير)، وسوف يتم التحصيل مباشرة من الجامعة، أوضحتُ لها:

- كنتُ أحسبه من زوجك!
- أنت تسأل عنه، هل هناك ما يقلقك نحوه؟
- ليس أكثر من مشاركة في قلقك الوحيد..
- من باب المجاملة لك الشكر، كنت أحسبك تسأل عنه، لكي أسرع بالطلاق..

هكذا بدأت تأخذ المعاني أشكالًا غير المصرح بها، فربما أحست أني أتمناها، فتزيد هي في ودها "إنه حقا يوم المراقبة والحذر".. لزمنا الصمت فترة ليست بالقصيرة، وكلانا ينتظر من الآخر نبش الصمت بكلمة واحدة، بدأتُ أنا بالحوار معها حول مشكلة السكن شاكرًا لها جهدها، وإن كان هذا ليس عليها بجديد، وأوضحت لها أنها لم تسألني عن رأيي في الملحق الذي أعدته لي.

وهل أنا على الجانب الآخر طلبت منك إيجاره؟ كانت تحاول صدمي بهذا السؤال.

ظلت صامته وزاد شرودها، رفعت عيناها سائلة في صمت، ما الداعي لكل هذا التغيير؟ كأنها تنكر أن يكون جليسها الآن هو رفيق السهرة بالأمس.

"هل تودين أن أظل أسير فضلك، وإحسانك، وعلى مرمى حجر من أبناء البعثات و..". أمسكتُ عن الكلام لأنها كانت في حالة غير متوقعه، فقد خرجت منها زفرة، ودمعة، و انفرجت سحابة وجهها عن تعبيرٍ بالخيبة وبدأت تنطق كلمات متفرقة حتى استطاعت أن تتم جملة واحدة قائلةً بصوت حاد، فقد عادت إلى طبعها الجاد المنتظم:

- يا لك من جاهل أي فضل، إنها فرصة لكي أربح باستئجار الجامعة لهذا الملحق ثم إذا كنت ترغب في عدم التقارب، أو أني أسأت فهمك، أو استعجلت فهمك.. فباب الملحق الخارجي موجود، وإليك المفتاح، وهذا هو المعد سلفًا لو تذكر.

هذه هي سوناتا التي تفصل بين المشرفة، والمرأة والإنسانة والتي أسرتني بعقلها.. كانت في طريقها إلى الدور العلوي أثناء خروجها من المطبخ، فوجدتني كما أنا بمكاني..

- لماذا أنت هنا؟ سوناتا تسأل بعصبية وكبرياء..
- أظن أنك قد دعوتني للإقامة هنا لمدة ثلاثة أيام وأنا مازلت في اليوم الثالث..أم أنكِ تتخلين عن وعدك؟
- لا.. لا فبقاؤك لن يزيد في شيء.

- لماذا أنتِ متغيرة الوجه وعابسة؟ لم تجب أو تنظر ناحيتي.. أكملتُ في وجهها قائلا:

إلى هذا الحد خدش تعبيري إحساسك، لا أظن صديقي العزيز، لقد تعبتُ من كثرة الإلحاح عليك..

- الآن صديقك، من لحظة كنت سجانًا وما شابه هذا.
- آه.. يا ليتني كنت سجينًا تحت يدك فما ألذ هذا السجن وما أمتع الصحبة بالسجان! بدأت تخرج من حالة الكآبة والوجوم البادية عليها، وتتجاوب وتتسامح في تصرفاتها.
- ما دام الأمر هكذا.. هيا لنعد العشاء..
- بأمر ملكة النحل، وسيدة المنزل العظيم لكِ السمع والطاعة، هنا ابتسمت بل ضحكت بصوت عال من تعبير اتي المسرحية أثناء الجملة الأخيرة، وعلقت كما تعلق دومًا.. ما أسعد نساء الشرق بكم!

كلما كررتها أمامي ذكرت بنات الكفاف وحالهن.. فلهن الله!)..

وقفت تعد عشاءها بجدية وهي تسأل عن حياة النساء عندنا في الشرق، ولم تدع لي فرصة للجواب فقد أخذت توضح لي معاناة الزوجات هنا على كل المستويات..

- نحن -نسوة هذه البلاد- نترفع عن طلب المساعدة من الرجال في البيوت، كان هذا في الماضي، حتى اعتاد منا الرجال هذا، وهكذا نحن بالإضافة إلى أننا تعودنا على أننا سيدات آمرات في البيوت، ولكن مع الأيام زادت الأعباء علينا...

- قاطعتها: فلم تعودين إلى البيت وتصبحين ربة منزل، أو تتخلين عن السيطرة التامة؟
- آه لو أدرك الرجال هنا بعض ما تقول! كانت تلمح من طرف خفي لزوجها الهارب.. هكذا شعرت، على مائدة العشاء، وحول الطعام سألتني مباشرةً:
- لماذا تفر من المواجهات؟
- أي مواجهة يا سوناتا؟ (لم تجب، و أكملت).
- ألأنك تخشى الهزيمة؟!
- ومن على وجه الأرض لا يخشى الهزيمة.. كانت لا تسمع إجاباتي..وسألت:
- أود أن أفهم حقوق النساء في بلادكم.. أين تبدأ؟ و أين تنتهي؟ وكيف تطلب امرأة رجلا؟ أيجوز لامرأة أن تصرح بعواطفها لرجل؟ وكيف؟

عادت إلى همها الشاغل وسؤالها المتكرر الذي لا ينقطع أبدا، وبسرعة سألتها:

- هل تستطيعين أن تصفي لي دواء يعالج الكبد من مرض المرارة؟
- هل أنا طبيبة مؤهلة لذلك؟
- وبالمثل لا أستطيع أن أحدثك عن سؤالك هذا، لأني غير مؤهل له، ولا أستطيع الكلام عنه.
- لا أطلب حوارا باسم الدين، ولكن باسم العادات. (كادت تصرخ غضبًا).
- العادات نبت الأفكار والأفكار فرع المصرح به، والمصرح به دين.

لم تجمع المعنى كله، فكفت و انصرفت وعادت على غير عادة اليومين الماضيين بكوب نبيذ، كانت تبحث عن علة لكي تقدمها لي فهي لا تذكر أي

الأعذار الآن أقنع وأصوب، فتحدثت عن البرد وعن... ولكي ترضيني أضافت الماء إلى حافته.

- هل تريدين أن تفتحي باب المحرم في ديني وأكلي وعاداتي بهذا الكوب مرة أخرى؟
- لعلك الآن يا عمر تختصر الطريق بعض الشيء... كانت سوناتا تتعامل مع كوبها بشراهة وشيء من العصبية زادت عندما سمعتني أذكرها بعقلها الرصين..

"عقلي الجميل.. ذكائي البديهي.. أهذا ما تراه في سوناتا؟ ألست أنثى جميلة أيضا؟". كانت تتكلم بشكل غريب كأنها في بداية الطريق للثمل (السُكر) لقد اهتزت، وهي واقفة.. اقتربت منها وسحبت كوبها وأنا ألومها لأنها ستفسد ظني بها... هنا اقتربنا أكثر مما يجب، وألقت بنفسها على صدرى كأنها غير مقصودة... تلقيتها بشفقة ورفق كادت أن تبكي ضحكًا..

هل تظن أنها انتصرت عليّ بسلطان جسدها؟ بدأت تردد بعض الجمل الغريبة الغير مفهومة.."أنا المخطئة.. لا تدعني.. الذنب أنا صاحبة الذنب.. لا تدع بعض الوهم يفسد يومنا.. حق الحياة المتعة لنا، ودع الذنوب والآثام في يوم ما سوف تقضيها.. أما الآن فلا تفرط في ساعة البهجة".

إنها تعبث بي وتشجعني على نيل التفاحة، ومغازلة العيون ومسامرة الشفاه... آه.. إنها تظن أن الفضيلة بالالتحام مع الناس لا فكرًا في الدماء، في الخلاء نتحرر منها هكذا سريعا.. كأن الجماعة هي رب المراقبة لا غير. شعرتُ بحجم ابتلاء يوسف الصديق (عليه السلام) وأنا أسأل الله العون، اقتربتُ

بها من الأريكة ووضعتها على جانب منها وجلستُ على الكرسي المجاور لها.. آه.. سوناتا لم تعد مهيأة إلا لحديث الشعاب، وحديثها الآن عسير، فهو ارتقاء لا ينال إلا بحقه. غادرتُ البيت صباحا على مهل فالهدوء يخيم على المكان.. كدتُ أن أمر على عزت وأنا بطريقي للجامعة لكي يساعدني ويشد من أزرى وينصحني و... و... لكني تراجعت فما ظنه بي إذ علم أني لمستها بيدي بل وحملتها إلى مخدعها فيقرأ بين السطور ذنبًا لم أقترفه، وندما على إثم لم أرتكبه... إن ظن فهو على حق! فإني حتى الآن أسأل كيف قاومت هذه اللينة النشوى إذ ظفرت بحرارة، وهي ساكنة بين ذراعي؟.. خوفا من الظن بالمفاخرة وحرصًا على مشاعر سوناتا سعيتُ لكي أمحو هذه اللحظة، وإذا استطعت لا أجد من يذكرني بها.

أود أن يعود الاحترام بيننا ويسود.. عموما هذا شكل متبع هنا للتعبير عن الود والإعجاب فلم أر حتى الآن ودا صامتا أو متحرجا، أما الشفاف الحريري فقد نفذ من الأسواق، دق قلبي، وارتعدت أطرافي، وجمد الدم في عروقي عندما طاف برأسي أنها قد تفعل هذا وهي زوج لي، فتلين في يد غيري! جف لعابي حتى أقنعتُ نفسي وأسكنتُ هذه الهواجس بأنها لن تفعل هذا أبدًا لأني دوما معها، فلن أفر منها أو أترك سُقيا زرعي لغيري.

على كلا هذا دليل ضعف، لن أسمح للظنون بإفساد فرحتي.

(٧) التصريح والاعتذار.

ما كدتُ أظهر بالكلية حتى بدأت التساؤلات المريبة، واللمزات تحوم حولي، ولكني أذكر أهم هذه التعليقات: "بشراك لقد وقع بشباكك بضعة عصافير بحجر واحد".. كأن السيدة صارت لي خدِينة ودنيا جديدة أمرح فيها، لذا دعوته لزيارتي مساء السبت لأن سوناتا تعد حفلا (ماتنيه) وليكن لك حظ فيه كنت أكتم ضحكي بصعوبة مما سوف يناله! مرت ساعات اليوم بلا طعم فلا هو يوم ممل أو شيق كالعادة، وحان ميعاد مغادرة معمل الأرصاد، وجدت سوناتا على الباب الرئيسي للمبنى.. تجلس على مقدمة السيارة (بشيء من البساطة والمراهقة)، أشارت لكي أركب ونغادر معًا للمنزل.. لم أكن أملك حق الاعتراض.. يكفي أنها انتظرت حوالي الساعة والنصف من أجلي، يبدو أنها تتستر بقناع الجدية والصرامة، فأنا الآن لا أرى منها إلا وجه المراهقة ذات الإحساس والشغف، هل فصل المستويات وصل إلى هذا الحد؟! اتخذت سوناتا طريقًا غير مألوف لي عند العودة من الجامعة كلما سألتُ أجابت بأن الجو يساعد على نزهة بالسيارة حتى أوقفتها أمام مطعم شرقي أظنه لبنانيا أو تُركيّا، ودعتني إلى وجبة كاملة أنها قد ألمت بأن أهم متعة لرجال الشرق هي الأكل.. حتى هذه تعرفينها عنا يا سوناتا! سألتها، وكانت سعيدة باسمة بسؤالي الذي يبدو أنها أخذته على محمل المداعبات.. كانت لأول مرة أراها في حذاء بكعب مدبب يتعالى عن الأرض فاتح اللون ليتماشى مع المعطف (البيج) الطويل، ذي الأزرار الكبيرة، وبه العديد من الجيوب ليدل على طبعها العملي

في الحياة، وحبها للإنجاز، وله فراء حول الرقبة.. على حافة الدرجات ارتكنت عليّ وتأبطت ذراعي وهي ما زالت مبتسمة، ولم أخذلها ولكي أرضيها أكثر صرحت لها قائلا:

المرة القادمة، ستكونين "فراو/ عمر".. أعجبتها المجاملة، وتخلت عن قبعتها، وكذا المعطف.. فلاحظت أنها ترتدي (تايرا) بني اللون، ولكي تتمكن من ارتدائه أصبحت سوداء الشعر.. هكذا وضحت الصورة -أمضت الوقت بعد العمل في محل لتصفيف الشعر- ولعلها قصدت إلى هنا لتعطيني فرصة للمقارنة مع الجمال الشرقي أود أن أسألها؟! ولكن حرصًا على مشاعرها الفياضة، والجياشة التي تفجرت الآن معي، وتركتُ لها الزمام وبدأ توهجها العاطفي.. حبستُ السؤال وطار من رأسي الكلام عندما صعقتني سائلة:

- عمر، لماذا أنت سلبي المشاعر؟

لم تخرج أي إجابة على لساني فما كنت أفكر به بعيد عن أفكارها تماما، فجرت المفاجأة الكبرى.

- هل هناك من تملك زمام مشاعرك في بلادك؟ أجب مباشرة ولا تبحث عن كلمات منمقة ومرتبة فأنت صانع ماهر في هذا المجال.
- ليس بحثا "أخذتُ أرص بعض الكلمات على مهل" حتى وجدت الإجابة المناسبة، لو أني حقا لي في بلادي حب أو ما شابه هذا ما كنت أتمنى في كل لقاء أن تكوني زوجتي، وها أنا أكررها مرة أخرى: يا ليتك كنت زوجتي،

سهمت لحظة وفرحت ببراءة، وطفولة، وتداخلت تعبيرات وجهها وأعلنت مسرعة.

- إذن أنت جاد في الزواج من سيدة، لكن...
- قاطعتها: ما دخل لكن في الحوار؟
- لا تراوغ في الحوار.. أجب بوضوح..
- أجيب على ماذا؟
- عن زواجنا؟
- لا يبدو أن بكوبك بعض الخمر.
- لا... إنها خمر المفاجأة السارة.
- هل تدرين أن الرجال فى بلادي يتحرجون أن تدفع عنهم النساء؟
- عُد معي لصلب الموضوع ولا تهرب.

كانت تتكلم وكأنها تتقافز على الكرسي فلقد فارقت الدنيا إلى دنيا أخرى بهذا التصريح.

- أنا لا أهرب إلا من ذكرى ليلة الأمس.
- و أنا أعتذر لك بكل الوسائل المتاحة.
- هل صرّحتُ لك من قبل بأني أكره الشقراوات، أو ما شابه؟!
- أنت إن أصررت على شيء لا تحيد عنه ولهذا قررت أن أدخل دنيا اختياراتك حتى أجذبك إليّ.
- ما أروع فكرك! (يا ليت بعضهن بالوطن تصرفن مثلك)! –ونطقت الجملة بالعربية-.

- من فضلك يا عمر، لا تتحدث بالعربية أمامي حتى لا تسمح بالظنون أن تدخل بيننا، ولا تجرح مشاعري الهشة في هذه اللحظة السعيدة الحالمة.
- ما كنت أقول شيئا جارحا ولكني أتعجب من كل هذه المشاعر الدفينة.. أقسم لك.
- أنت في الغالب صادق، ملامحك لا تعرف الكذب و أنا أستطيع قراءتها.
- هل تعلمين أن الناس في بلادي اعتادوا وصفكن بأنكن بنات غلاظ القلب جامدات الشعور؟
- ماذا يؤجل زواجنا وكلانا قد رضي؟!
- كيف نتزوج؟ وكنت في غاية الانزعاج من سؤالها.. وهي تتبسم مندهشة من سؤالي.
- ما معنى كيف؟!
- كيف؟! تعني كيف أتزوج سيدة غير مطلقة فأنتِ لا تحملين وثيقة طلاق؟
- هل كان هو يحملها لينال زوجة أخرى؟ لكن لا أحد يمنعه من أن يتمتع ويسعد بفراش أنثى! أين العدل أين المساواة يا ابن الشرق وال...؟ (أمسكتْ عن إكمال الكلمة وعبثا حاولتُ أن أتمها لكني لم أنجح)!
- هل أنساكِ الفرح معنى الكلام؟ فأنا أسأل في اتجاه و أنتِ في المعاكس تماما.
- عمر.. لا تجعل المعنى الضيق للزواج يستبد بك، فهذه الورقة ما جدواها لو مل كلانا الآخر؟
- تثبت بعض الحقوق.

- إنها حبل إعدام.. أما بدونها نحيا بحرية، ونستمتع بلا خوف، بلا أعباء، بلا قيود.
- حبي قيد.. وسكني التزام.. وجواري عبء.. أترضين به؟
- لا أفهم، ماذا تقصد بهذا الكلام؟
- القيد طاعتي.. والالتزام بيتي.. والأعباء أولادي.
- لك ما تريد، وفوق ما تريد.
- كيف هذا، بلا وثيقة طلاق؟!
- ...

انقطع حبل التواصل بيننا، هي تسعى لكي يتم زواجنا بالتراضي حتى يتم الطلاق لها ثم نوثق عقدا بعدها إذا رغبنا في هذا، و أنا لا أفهم معنى هذا القول.. الوعاء لشارب واحد.

كنت أداعب أحلامها بالأمومة في عدة مرات، ودائما تجيب: "الأطفال حقهم مؤكد في النسب وفي كل شيء.. لا تخف".

ما نكاد نقترب حتى يحدث بيننا الصدام، بالفعل أو بالكلام والحوار.

كان الطعام بدأ أن يصل فقمتُ، وتحررتُ من سترة الحلة، وكشفتُ عن ساعدي لأبدأ في التهام الوجبة، وسوناتا تبدي الدهشة من هذا الذي يستعد للأكل بالتخلي عن ملابسه، لقد كنت طلبت (فتة وعكاوي) بالإضافة لفطيرة بالسكر ومحشية بالكريمة.. ذاقت سوناتا الفته ثم اتجهت إلى الفطيرة مباشرة واكتفت بهذا.

لم تكن دعوة سوناتا للعشاء هي المفاجأة الوحيدة لي، فقد قدمتني لزميله لها، وجار بالحي، أتت لنا وهي تؤكد أنها كانت على وشك الاعتذار التام لولا بعض الدقة والتوفيق في العمل وشيءٍ من التأجيل المؤسف.

يبدو أن إطالة العشاء كان بغرض التعارف على فراو إدلر ومارلين التي يبدو أنها مصدر السؤال والملهمة لها، لأنها سيدة من دارسات الآداب الشرقية في العصور الوسطى، ولقد سبق لها وأن تعرفت بالسيدة أميمة (فراو المصري).. كان عليّ أن أدخل في ملاحظات مع شبه عالم في الاستشراق، لأنها تدرس هذا المجال على سبيل الهواية بجانب عملها الرسمي في الترجمة.. النساء هن دائما هن، فإذا بالسؤال المحرك والدافع لها هو... كيف يستطيع الرجال العرب الزواج بأربع؟!

هنا شهقت سوناتا بصوت مسموع قائلة:

- أربع نساء.. كيف هذا؟!
- والأدهى أنه يدعي أنه يحب الأربعة جميعا. (هكذا علقت مارلين).

أشرتُ لمارلين أن تجيب، فانسحبت تماما مؤكدة فقط حضورها يوم السبت في تمام السابعة، ومعها بعض الاستفسارات لي..

أشارتُ لسوناتا بأن الوقت قد مر، والساعة قد قاربت التاسعة وعليها الاستعداد ليوم العمل التالي..

- أنت دائما تهرب من الإجابات.. لا بد من أن أكرر السؤال أكثر من مرة.. لماذا؟ لا أدري!
- حتى إذا نلتِ الإجابة احتفظتِ بها لمدة أطول، ولا تفرطي فيها بسهولة.

استمهلتني سوناتا في الانصراف، حتى تحضر عرض إحدى الفرق الصغيرة للرقص الشرقي.. بدأتُ معها أنا السؤال..

- ما رأيك في زوجك، وهو مع أخرى ويبقي عليك؟!
- هو حيوان، لا يستطيع أن يستغني عن وجوده..

"كانت تتكلم بحدة، وضجر، وكأنه ما زال عالقا بذهنها".

- نظرا لأن تعاليم الشرق أدركت أن الإنسان به جزء من الحيوان، فأعطت للرجل أربع نساء؛ لأنها الرغبة وسطوتها، فالحيوان والإنسان فيها سيان.
- كم يكابد النساء من النساء؟
- يا (سونا) نادر منا من يجمع أربع نساء في كنفه.

حاولتُ أن أقفل معها باب النزال في هذا الموضوع بشيء من الشرح، لأنها لم تهضم الاختصار في الجواب بعد، أن خير ما توصف به شرقية هو العقل فهو سر الجمال، ودليل الكمال..

فالمال.. بالعقل يصان، أما الجمال بسحر وضياء العقل يدوم، بالإضافة إلى أن الاختيار في أرض الشرق غالبا ما يكون لوردة من أرض رجل حنون فاهم واع. بدأت تلمع عيناها، وتنفرج أسارير وجهها، ولكن بلا تعبير سائد، أكملتُ قائلا:

للأسف بدأ أهل بلادنا ينظرون للورود على الأغصان دون الأشجار، فبدأت تظهر عندنا بعض المشاكل التي هي في الو اقع من بنات بذوركم.

هنا نبهتُ سوناتا إلى أن الرجل -غالبا- لا يرغب في الشيء الملموس القريب لكنه يبحث عن الدفء المعنوي، والإحساس، والقيمة هذه هي مجمل المعاني عندنا.. هل فهمتِ؟

فجأة وبلا مقدمات انحنت، ومالت عليّ، وقبلتني.

-"هذا لا يجوز... لا تفعليها مرة أخرى، ولولا عيون الناس لردت عليك كما يجب".

كنت أحدثها همسا، وبغيظ مكتوم، وانقلبت معها حالة الارتياح التي كانت عليها إلى حالة بلا معنى، كأن طقس بلادها قد ظهر في ملامحها من النقيض إلى النقيض.

جمدت مكانها، ووضح عليها عدم الفهم، والاستغراب، والاندهاش، وهمست: "ماذا حدث؟! " وكانت تنظر إليّ، فعلقت على عبثي بالخد.. "لا تخف هذا الروج لا يطبع".

ابتسمت من تعليقها، دخل الاطمئنان إلى قلبها، ومرغمًا مددت يدي لأربت على يديها فعادت وأكملت: إنها كانت تعبيرا عن إعجابي؟ كيف أستطيع أن أعبر لك عنه؟ - بأن تنالي الطلاق بأسرع وقت ممكن، وبأي ثمن..هذا ما أقبله.

رد جوابي لها بعض الكبرياء، والثقة بأن نداءها لم يذهب هباءً، وكالعادة رددت لازمتها المعتادة: "ما أسعد نساء الشرق بكم! فهن كالسابحات في بحر النور الملتهب".

ولا أدري كيف يكون النور ملتهبا، ربما لأني لم أتقن الألمانية جيدا فترجمت المعنى بشيء من الالتباس، لكن من المؤكد أنها تحسد نساء الشرق... ليتهن يسمعن!

(٨) جسر التقارب.

ضيفي الثقيل كانت في انتظاره مفاجأة لذيذة، بأنه شاركني إعداد الملحق، وتنظيم الأدوات به، وحمل الأمتعة من أسفل إلى أعلى، وبالعكس، وجعلته يلاحظ، ويتأكد أن الملحق منفصل وبعيد عن الفيلا تمامًا إلا إذا رغبتُ – أنا – فبهذا أصبحتُ بعيدا عن كل الشكوك، والظنون... حتى المدخل فأنا مستقل تمامًا عن الفيلا.. لكنه لم يدع الفرصة تمر حتى يقذفني بحجر آخر..

"بشراك.. تسكن في حي السرايات بجوار غابة الأشجار".

لا بد من رد بسرعة، وبالمثل رددت:

"أنت بشراك بالادخار، والتوفير، والقرب من مركز الخدمات.. أما أنا...".

فوجدته يشير أن كفى، لا داعي لكل هذا الحسد، فلقد كانت دعابة لا أكثر، وحاول الفرار من باقي العمل.. فلم أدعه يخرج حتى أتم معي كل شيء، حتى إعادة تشغيل أركان المطبخ الكهربائية، وهو بدوره أكد لكل سيئ الظن بأن إقامتي هنا لا تحمل أكثر من معناها.. فلو كنت أقيم في فندق صغير أو حجرة بشقة في مكان هنا أو هناك.. أكان ظنهم سيبقى كما هو وأُرمي بهذه التلميحات، على الرغم من أنني لم أخالف عرف البلاد هنا.. أم أنه كلما زادت المعرفة بالطرفين زاد بهم الظن السيئ، أهكذا يكون جزاء الثقة والقربى؟

سمعت صوت سوناتا تنادي على الهاتف الداخلي بأن عليّ أن أستعد للقاء الصحبة، فقد دعت أصدقاءها، وأصدقائي لأمسية على العشاء يوم السبت. حقا هكذا مر الأسبوع سريعًا لم أسمع منها أو عنها شيئًا غير أنها في وجد جديد هو الطلاق.. هل هذه الأمسية، لتعبر عن حبها للوافد الجديد؟! ومحاولة لإرضائه بوسائل يفهمها.. ويعترف بها.

طلبت مني أن أساعدها في إعداد الصالة للجمع، فشاهدتها تحل الجدران لكي تتداخل المساحات.. كانت تعمل بسعادة بادية، هل هي تفعل هذا لأنها ما زالت على الطرف الآخر.. وإذا تم الزواج تتبدل الأوضاع، كما اعتدنا من نسائنا في الشرق؟

أليست طباع البشر واحدة لا تتغير؟

إذن، فهن... هن!

توافد الجمع..عزت وحرمه، وصلاح ومريم، ومارلين وليندا صديقات سوناتا.

عندما دخلت مارلين، وبدأت في السلام وجدتها تبادلني التحية بالقبلات، فلم ألومها أو أرفض سلامها، وجمت سوناتا ومارلين للحظة، وودت سوناتا أن تسأل..

"لماذا طاوعتها..؟ وهل هذا مجرد سلام؟".

ألمحتُ لها بأن هذه عاداتكم هنا أليس كذلك؟، فهذا سلام عابر لا أكثر، أما أنتِ فإني أود أن تتعلمي طباع الشرق الذي سوف تنتقلين إليه، لا يجوز أن تفعليها لأنها من المحرمات.

قامت سوناتا وجلست إلى أميمة في ركن بعيد، هل أدركت أن معظم أسراري في طي أميمة لأنها جارة، وأخت صديق، و أنا الذي دبرت زفافها.. على كل حال أميمة إنسانه أمينة لن تبوح بذكريات كانت وأحلام ولت..

"هل كانت سوناتا تغاضبك؟".

إنها مارلين تسأل، ولم تدع لي فرصة للجواب فقد أكملت..

"كن دائمًا على حذر و أنت تتعامل مع سوناتا.. فهي حماسية الطبع، وبها من الغيرة الكثير، ولعل هذا هو السبب في التنافر بينها وبين زوجها".

وجدتُ أن هذه فرصة لكي أستكمل قصة الهارب إذا كان عندها علم بها.

"تعلم يا سيد عمر مقدار الحسم والالتزام في طبع سوناتا، فلهذا كانت لزوجها على أنه لها فقط لا حق لأحد فيه غيرها، أما "هر/ كولر" فقد كان منطلقًا يحب التغيير حتى في النساء يمل ويهجر، ويبدأ البحث عن فراشةٍ جديدة، ولكنه كان لا يجمع بين امرأتين وكثيرا ما وقع الصدام بين أفكاره، وبين أفكار سوناتا".

دخلت سوناتا في الحوار تسمع ما هذا الهمس؟ فلما أدركت أن الحوار كان عنها..

- "لماذا لم تسألني أنا؟".

أجبتها ببساطة وعلى عجل:

- حتى لا أسبب لك ألمًا بذكرى قد مرت.
- على كل حال سأكملها حتى يطمئن قلبك، ولكن أولا "هل تملك الجواب عما يبحث الرجل بين النساء؟".

- هذه تعود لطبع الرجل..
- طبع الرجل.. كولركان دائم البحث عن ماذا؟ ولماذا؟

لم تدع لي الفرصة للرد وزفرت قائلةً:

- هل عندك أنت الجواب يا ابن الجواري والعشيقات؟

كان صوتها به شيء من اللوعة وامتزجت كلماتها بمرارة الأسى، هنا انسحبت مارلين من الكرسي المقابل بهدوء، لعلها ظنت أن ريحًا صادمة سوف تهب، فلهذا أمسكت عن الكلام، وتركت لسوناتا الزمام...

"لماذا؟، أهو حب المغامرة؟ فلماذا ارتبط معي في زواج رسمي دون كل من عرف؟ ألأني لم أكن معه كل الوقت بكل جوارحي؟، فأنا عرفته بحدود، وعندما كنت له فروهرب بسبب الجمال والنساء هو حر بحق أما أنا حرة بلا معنى، فالضيق والمشاكل تحاصرني من كل جانب.. أود أن أحسم هذه الحالة بسرعة".

"آه.. تود أن تربح بالطلاق كما الحال هناك...". كنت أعلق بيني وبين نفسي ردني سؤالها عن معنى الزواج عندنا... في بلادنا...

لم تسمع جواب السؤال.. لقد قامت، واتجهت ناحية منضدة صغيرة، وعادت تحمل فنجانين من القهوة ناولتني أحدهما قائلة:

"سأحاول أن أشاركك بعض عاداتك، أتذكر عندما كنت بين يديك، وأمامك أمارس حريتي معك؟ لكنك لم تغامر، ولو فعلت لن تلام فأنت ابن الجواري والعشيقات.. طالب المتعة.. ولكنك زهدت بكبرياء، وقوة من أين لك بها؟ أما ابن الحضارة، والمدينة لا يخشى بل يطارد، وعذره في هذا:

"لكل رجل نقطة ضعف وهفوة.. وهذا هو عيبي الوحيد"، وأحيانا يلومني بمنتهى الجدية..

"إن تأخرت عنك وراق لك ماء عين فاشربيه".

فوق هذا بدأت تقل مصادره المالية، وتشتت جهوده.. فقد الحماس للحياة، ومعنى النضال.. هكذا بلا مقدمات، ولم يجد ما يناضل من أجله إلا أنا ليثبت أنه ما يزال على قيد الحياة.. لم أستطع مجاراته.. أنت تفهم ما أقصده يا ابن الصحراء... لم أقبل أن أكون جارية، أو ميدان انتصار لحيوان مثله.

كنت على وشك زجرها بشدة لولا أني نظرت في فنجانها، فقد كانت حقًا على وشك النشوى.. وأدركت معنى.. "جبر الخاطر.. هذا المعنى الذي تحرص عليه كل زوجة شرقية عند انكسار زوجها".

فجرت سوناتا غضبي، فقذفت الفنجان نحوها ولكنه مر بجوارها.. صرخت... جاءت أميمة قفزًا وسحبت سوناتا، وهي باكية... أعقبتها مارلين على مهل ومن قبلها جاء عزت الذي لامني بحدة على تصرفي الهمجي العصبي غير المدروس..

هل بك شيء من جنون، أو جنوح الطبع الذي يداهمك فجأة، وبدون مقدمات؟

وانصرف بسرعة ليشارك زوجته في جبر خاطر سوناتا، أما مارلين فقد ظلت أمامي ساهمة للحظة، ثم همست...

- هر عمر أدركت أن عاصفة من الجنوح الفظ ستهب.. لقد فقدت سوناتا معاني الحياة المشتركة وبهجة الرغبة على مدار حياتها، سواء عندما كنا بالمدرسة العليا والجامعة، وعندما تزوجت كولر، وعندما طرق الحب باب سمائها كان على يد رجل يسمح لقلبه أن تتقاسمه امرأتان، وثلاث، وأربع، فهي تخاف همها المفزع أن تجد في غيرها ما ليس فيها، فتندفع نحوها و أنت مرتاح الضمير فهذا منطق بلادك.
- "فراو إدلر: إلى هذا الحد صار(الخوف من الأنثى الغازية/ مجازا) مكمن فكرها، ومحرك شوقها، لقد أكدتُ لها...

ضحكت مارلين من وصفي لحال سوناتا لكنها تابعت حوارها:

- نعم... لقد قالت: "إنك تصفها دوما بالعقل، وشيء آخر عن تقاليد الاختيار لم أفهمها، هل لك أن تشرحها مرة أخرى؟".

كانت مارلين تكسب لحظات حوار، بعيدًا عن حياة سوناتا، وعن هذه اللحظة لتصرف ذهني عن الصدام الذي وقع من لحظات..

- ألن تجيب على سؤالي يا (هرعمر)؟
- لا.. سأجيب، ولك الشكر على محاولة حرق الشيطان وتصرفاته التي هبت من لحظة.

المشكلة أن سوناتا حكمت على عاداتي من تجربتها الفاشلة الدنيئة.. -للأسف- أما سؤالك المتكرر الدائم، فأركان البيت عندنا أربع، وعناصر المقارنة بين النساء أربع، ولذا فأقصى سعة هي أربع.. كل عنصر في واحدة، وبعدها عن ماذا سوف أبحث؟!

- لماذا لم أرك في حلقات الفكر العربي عندنا بالمركز، أو في ساحة الجامعة؟ فحد علمي أنك طالب هنا!

- هذا، لأني غير مؤهل للكلام، والنقاش، وما صدر مني مع سوناتا خير دليل.. فلهذا أدع هذا المجال لمن يطيقه..

- "هر عمر.. ألا ترى أنه من الواجب أن تعتذر لسوناتا؟".

كانت مارلين تنظر لي بطرف عينيها وتجلس بوضع جانبي على حافة الكرسي حين نطقت هذا السؤال.

- هذا أمر حتمي وواجب ضروري، فليس جزاء من تغدق بالإحسان وتفيض بأحاسيسها أن تهان وتتجرع مرارات الحسرة وخيبة الأمل وتُجرح كرامتها ويُهان كبرياؤها.

- آآآآآآآآآآآآآآه ما أروع أن يكون للمحب ضمير واع، والأروع بحق أن تكون صادقًا يا عمر.

وضمت مارلين يدي، وكأنها أم مع تلميذ... في حجرة المكتب كانت سوناتا دامعة العين متقطعة الأنفاس!

وفجأة صاحت بي مارلين.."اعتذر لها كما يجب..".

سألت أميمة وهي تغمز بعينها:

- هل قصدك أن يقبلها؟

ظلت سوناتا على حالتها، ومارلين تؤكد أن هذا أقل ما يجب.

- "هنا كان لا بد أن أطاوع الجميع، فقبلتُ سوناتا ولكن في جبينها".

وعلقت مارلين قائلتة:

- يا لك من رجل ذكي يا عمر لكن أحترم فيك حفاظك على عهدك الذى تسميه "الدين".

وبدورها ردت سوناتا معتذرةً..

- آسفة.. فلن أعود أذكر أيام كولر أمامك، وسأسعى بجدية وإصرار لأمحو أيامه...

دخلت أميمة في الحوار سائلةً: "هل لي أن أدعوكم لتشاركونا الغذاء غدا بالغابة"؟

و افقت سوناتا وتأكدت أميمة من مارلين.. هل ستحضر؟ اندهشت من روح الود الشاملة مع أصدقاء أصدقائنا؟

تركنا مارلين مع سوناتا، و انتحت أميمة بي جانبا، وكانت تغني إحدى أغاني صباح (عاشقة وغلبانة والنبي) ثم قالت:

- "يا رجل ترفّق بالشابة أصلها دايبة.. هو أنت في كل شارع لك قصة وحدوتة.. أنت مين قولّي بالضبط؟".. كانت تداعب الجو المشحون.

أشرتُ لزوجها لكي يتدخل، فإذا به يرفع يده ويمد شفتاه دليلا على عدم التدخل ثم اقترب مني، وهمس في أذني:

"اشرب لك كأس، أنت من رشّحها لي".

بدأت سوناتا تعود إلى طبعها السائد، وتسعد بحالة الود الصافي الذي بدأت تفوح روائحها بيننا.. تحاول الآن أن تلم بعض مشاعرنا، وتفهم مداعباتي مع زملائي.

نادتني أميمة: "بالك مع مين...، سوناتا لا تحب أن تغادر بلادها.. تحب أن تبقى أنت معها وتستشهد بأنك ستبقى هنا خمس سنوات للدراسة وتستطيع بعدها أن تجد عملا مرموقا في أي مكان هنا، أما المشاكل المادية فستجد لها الحل ما دمت أنت معها، لاحظ يا عمر أنها متدفقة نحوك بشكل متوهج وعميق.. المشكلة أنها أوقفت طاقة وعيها عليك.. تتكلم عنك بلكنة شهية وشقية تتطلع ليوم الزفاف.. بالمناسبة: مبارك عليك أول قبلة بالمطعم.. إنها تعجب من غضبك وتظن أن رجالنا قساة لا يفهمون إلا... وضحكت، وهي تخفي دعابة سمجة خارجة عن جانب الحياء شيئا ما ثم أكملت:

- "ما تريح نفسك وتريح الشابة.. حد طايل يا جدع... لازم ما في عنده نظر".

تجاوزت عن هزلها الخارج فما هو عليّ بجديد.. واستردت قالبها الجاد قائلة:

"بحق رعاية أم عمر لأميمة والجوار وجب عليّ أن أحذرك من أن مطاوعة سوناتا لك قد تكون درجة درجة من أجل كسر الملل، والبحث عن جديد لا أكثر، وهي واقفة على حافة المنحدر، وفي النهاية تملص من يمينك..

الأفضل لك يا عمر أن تسكن بعيدا عنها ما دمتُ قد قررت الزواج منها، ولَكَم أتمنى أن يكون زواجا حتى آخر العمر".

إصرار أميمة على الدعوة الأخيرة أدخلني في ريبة، فهذه الدعوة ليس مقامها الآن دخلت علينا مارلين في الحوار هامسة:

"كفي عبثا بالنار.. انظر لسوناتا، وهي تراقب حوارك مع أميمة إنها تكتم بركانا متأججا في ضلوعها..".

فما كادت سوناتا تلمحني بمفردي حتى دخلت عليّ، وهي متنمرة..

- أنت لا تنظر لامرأة بلا زوج، وتسامر وتجالس امرأة متزوجة أمام زوجها. أما زالت هذه مواصفات الجمال في عينك؟
- سو، لا داعي للتجريح، لقد قلتِ: إن هذا كان أمام زوجها، فلماذا الخجل؟! فلو كان مخجلا أو معيبا لرد زوجها عنها، أو اشتكت هي، أو انتصرت لنفسها، بالإضافة إلى أن أميمة كانت جارتي وقدمتها للمصري، وقاربت بينها وبين عزت، فلو كانت جميلة في عيني لكنت استحوذتُ عليها لنفسي، ولكن وفق تقاليد الشرق.. نقدم أفضل البنات لخير الرجال دون أي اعتبارات جانبية.
- لهذه الدرجة.. الكل يسعى بقصد وبدون قصد في خدمة النساء! لكني لاحظت أن حق الاختيار ليس للمرأة، فأنت قدمتها، وهو قبلها، هناك سر خفي في عقولكم يحكم عاداتكم، أود أن أقبض على هذا السر.

ضحكتُ من تعليق سوناتا.. وبادرتُها قائلا:

- مادام القلب نابضا في صدرك بالملاحظات، والعين تسأل عما لا تفهم، فقريبا جدا ستدخلين في لب الموضوع بالزواج من عربي، والحياة في أرض الشرق.

حاولت أن أجمع رد فعلها من الجملة الأخيرة، فلم يبدُ عليها أي تعبير، فأكملتُ:

- لكن عليك أن تتواءمي مع الفكر، فنحن أغنياء بالقلم، وبالفكر، وأثرياء بالعادات، فقراء في المال بعض الشيء، أسخياء مع من يبادلنا الود بود.
- (صاحت مندهشة).. عمر، الأمر في غاية التعقيد، ما دمنا معًا فكل شيء سيهون، وهذا خير ما في هذا التعقيد.
- يا سونا، هل ستبدئين في تعلم العربية،أم أنك سوف تتحدثين بالألمانية؟

كنت لا أدع فرصة لكي أذكرها بأنها ستهجر بلادها إلى الشرق إلا ولمحت إلى هذا، وبالفعل ما وقع هذا التلميح في وعيها، إلا وأوقفت رجلها عن الاهتزاز وقبضت على مخادع كرسيها بقوة وغل وظلت صامته مشتتة بين ناري.. نار الفراق، ووخزة هجر الوطن.. كدت أسمع خفقان قلبها، وألمح تلعثم التصريح بما تود على لسانها! (سأحرم منه قبل البداية)..

سونا.. لن أجيب لك على سؤال من الآن إلا إذا سألتني إياه بالعربية.

هكذا، نشلتها من بحر صمتها المحير، لكي أرحم ضعفها ولتعلم بأني باق عليها وراغب في اللقاء عند منتصف الجسر أعلى دوامات النهر.. لعلها تتذكر وتدرك.

(٩) يوم النزهة.

سمعتُ دقات على باب الشقة.. فتحتُ، وجدتها سوناتا تدخل باندفاع، غير معتاد، وتتحدث باندهاش:

- اليوم يوم الراحة.. لا عمل مطلقا.. أغلق الحاسب، والكتاب، واستعد لنزهة طويلة في الغابة.
- سونا، لست بحاجة لنزهة، أو ما شابه ذلك.. أود العمل، فقد بدأ يدب في نفسي الملل و...
- لا تكمل.. فالإجازة فن سوف يجعلك تستطيع أن تنجز أكثر مما تود.

حاولتُ أن أتملص، وأختلق الأعذار، لكي أهرب من لقاءات عذبة على سطح بحيرة متجمدة فأكملت قائلة:

عمر.. النزهة بها أكثر من خمس أشخاص غيرنا من بينهم أميمة وعزت وربما مريم وليندا ومارلين. وهنا ضحكت بملء فمها لأول مرة أمامي، وسقطت على كرسي المكتب وهي تقول:

- آه مارلين.. إنها تود الانفراد بك، لتكمل فهم أحد الفصول في دراستها العليا، الآن لا عذر لك في الفرار، فما دام هناك مجال للكلام، والتباري، والجدال فأنت المتألق الساعي إليه دائما.
- سونا.. أهكذا ظنك بي؟
- ليس بظن إنه يقين.. (و اتجهت للباب) وقالت:

- سأنتظرك تحت بالمطبخ، لأعد لكم "أواني الشاي" (حقا أمزجه إنجليزية).. وعليك أنت بطعام أهلك.
- سونا.. لا دفء بالسوائل!
- ألم تلاحظ أني بدأت أقلع عن الخمور كلها؟ فدفء قلبك واطمئنان نفسك، واحتواء العقل كفاني شر ما تكره..

رفعتُ يدي لها مصفقا، لأنها دخلت دنيا الحب المتسامي، وبدت عليها السعادة، وهي تتقافز على السلم نزولا حتى إنها نسيت أن السلم الداخلي مفتاحه معي، ويمكن استعماله.

نزلتُ للدور الأرضي، وساعدتُ سوناتا في طلبها، وحضرت أميمة ومعها نجلها الصغير وبنت صلاح لتشاركنا النزهة حتى يحضر صلاح مع مريم متأخرا، فهو في رفقة عزت لقضاء حاجات المنزل الأسبوعية.

تركت أميمة مع سوناتا في المطبخ، وسريعا ما نادت أميمة، لكي أحمل الغذاء عنهم ونتجه للغابة، فقد حجزت سوناتا –بالأمس– الصالون رقم (٩).. حاولت سوناتا تقرب لنا معنى الصالون، على أنه كشك خشبي به ثلاجة صغيرة ودولاب ومقاعد على شكل نصف دائرة، ومجموعة ستائر من المعدن المنزلقة، لكي تغلق الصالون عندما يريد الحضور ذلك، ما كادت تنهي سوناتا شرحها، حتى كنا على باب المنتزه، ووجدنا مارلين في الانتظار هناك، وتعتذر باسم زوجها السيد إدلر الذي سوف يتأخر هو أيضا، لأنه برفقة أصدقائه حسب موعد سابق، وسوف يحاول أن يحضر، إنما متأخرًا بعض الشيء..

كنتُ مهتمًا جدا، وأصرف كل انتباهي إلى الصغار، لكي أداوي خجلي وتعاملي بحذر مع الرفقة ولم تستطع مارلين أن تكتم دهشتها من هذا الجو الحذر جدا بيننا، على عكس أمس.. فألقت بالسؤال عن سر هذه الحالة..

ضحكت سوناتا (باستنكار) قائلة:

- "إنك لم تدركي بعد أخلاقهم وطباعهم".

كانت بنت صلاح بدأت تتحرر من قيد المكان، وتنطلق في الغابة، وسرعان ما قصدت إلى من هم في مثل سنها، فوقفت أرقبها، وأشجعها على اللعب، ودخل أحمد عزت وأمه في الحوار اللاهي البريء..

فجأة صارت أميمة محور اهتمام الحديقة، لقد أغراها الحبل، وذكرها بأيام الصبا، فنزلت من عليائها ولامست بكعبيها الأرض، وأخذت الحبل من يد الصبية، وبدأت تتقافز، كأنها أعجوبة أن تفعل ذات السترة الطويلة (والسروال الواسع)، وغطاء الرأس(الإيشارب)، بعض السيدات وقفن ممسكات بالعد، بينما أميمة تقفز في حرية، وبراءة، وسعادة غامرة، فلما نال منها الجهد ردت الحبل إلى الصبية، وصفقت مارلين ضاحكة ومعها سوناتا التى همست لأميمة..

"أكان يمكنك أن تفعليها في الوطن يا أم أحمد؟".

صمتت أميمة ولم تجب.. ولكنها استأذنت الصبية، وناولتني الحبل، وترجتني أن ألعب به.. بدأتُ ألعب بالحبل بالشكل المعتاد ، ثم قفزًا وأنا أجري، ثم جلوسًا، ثم وأنا أغير القدمين سألت مارلين:

أهذا الطفل سيكون زوجك يا سوناتا؟!

أما البنات، فقد كن في دهشة مما يحدث من هذا الشاب الكبير..

أنهيتُ الفقرة، واتجهنا لجولة في الغابة جميعًا، حتى يحضر عزت، واستمرت الجولة لمدة طويلة، بلا حوار، إلا عبارات الاندهاش من روعة منظر الأشجار وحسن الخالق.. وسمعنا صوت ينادي بالعربية:

(عمر... عمر)..

كان عزت ينادي، بل يستغيث لننجده من البحث عن أسرته، لقد دخل من باب بعيد ولا يعلم شيئا عن منطقة الصالونات، عدنا ليستريح عزت من السير.. ما كدنا ندخل الصالون، حتى همست سوناتا لعزت بجملة ما.. فضحك عزت وهو يحاول أن يرتدي قناع الصدمة.. "أميمة.. كنت أبحث عن محل للعب ولك مني حبل".

أميمة: بماذا كانت تهمس سوناتا لك؟ (بالعربية).

أجاب عزت، بالعربية أيضا:

- كانت تفتن عليكِ، بأنك لعبت بالحبل بدوني، وقبل حضوري.

سوناتا: أود أن أفهم هذا الحوار-من فضلكم- لا تتحدثا بلغة لا أفهمها.

مارلين: هل تفعلين هذا في بلادك بجراءة؟

أخذتُ زمام الجواب قبل أميمة، وأجبتُ:

- هناك تقاليد، وعادات بين البشر بعيدة عن تعاليم الشرق أو قوانين السماء، تمنع أن تفعل الشابات الناضجات أو الأمهات مثل هذا، وأنا فعلا أستنكر هذا.. ولكن ما باليد حيلة، سمعنا صوت نداء على (فراو إدلر) لكي

تلاقي زوجها عند الباب الشرقي، اتجهت مارلين ومعها الأطفال وأميمة، لكي يركبوا معا الدراجة الكهربائية، حتى الباب فإنها نزهة مرحة..

عزت: علينا أن نستمتع بأكبر قدر فهذه آخر عطلة لنا، لأن الامتحانات في غضون أسابيع.

زمجرت سوناتا في وجه عزت..

- اليوم نزهة لا تذكر أي شيء عن العمل، أو خطوات الغد، استمتع بهذه اللحظة فقط.

سألتُ: هل يحق لنا أن نسأل عن الطعام في هذا اليوم؟

سوناتا: بالتأكيد عندما يحضر (هر إدلر) سنبدأ في الغذاء.

عزت : (هر إدلر) أهو الأستاذ المشرف علينا بالجامعة؟

سوناتا: نعم هو المشرف عليك يا (هر المصري).

علقتُ: نخرج لإجازة فنجد العمل في صحبتنا.

عزت : لا تعجل، فهو رجل جاد، لكنه يحب الحياة مثل الأستاذ/ تيسير.. أتذكر؟!

سوناتا: أحسنت في وصف البروفسير، ولكن من هو "بروفسير" تيسير هذا؟

تأخرت مارلين ورفاقها عن الحضور، وطال انتظارنا، حتى كدنا نمل، ونبدأ نحن في الأكل، ولكنهم دخلوا علينا مباشرة، وهم صامتون، الترحيب بين إدلر وعزت لم يستغرق وقتا طويلًا، وقبل أن نسأل عن تأخرهم أطلعنا إدلر على السبب قائلا:

- هذا المكان له سره من الجمال، وهو الهدوء، ولكن أن نجرح هذا الوقار بالضوضاء والعبث الماجن فهذا جنون، حاولت أن أرد بعض الشباب عن جنوحهم، ولكنهم لم يستجيبوا فاتجهت بهم إلى نقطة النظام، من حقهم أن يستمتعوا بالإجازة في حدود النظام والحرية العامة القائمة على عدم التعدي و...

السيدة مارلين -مشكورة- أوقفت هذا السيل من الحكم والمواعظ، بأن ذكرت الرجل بأن موعد الغذاء قد مر بسبب انتظارنا له... اعتذر الرجل، وبدأ يشارك معنا في إعداد الشطائر، ملء أكواب العصير. أعقب الغداء لحظة من سكون، وبدأ الحوار يمتد عن مجالات الدراسة في الرسالة العليا لنا، وما هو خير المتاح أمامنا؟ ونصائح الأستاذ لنا في ضوء ما سبق دراسته، وعلى أساس أننا طلاب بعثات رسمية ستعود لبلادها، لتؤسس لفروع من علوم حديثة.

هنا أصرت أميمة على معاودة اللعب مرة أخرى مع أحمد ومها، وخرجت سوناتا لتطلب نزهة بصحبتي في الحديقة، ما دمت لن أسمح لها بالاتصال خلال الأسابيع القادمة.

انعطفت سوناتا إلى جانب لم أر مثله في حياتي أشجار عالية متشابكة الأغصان.. لعبت أصابع فنان بها من خلال بعض التداخلات الضوئية الهادئة فما أن تمر بها حتى لا بد أن يأخذك سحر المكان وروعة البهاء لأن تذكر رب الجمال..

وسألت سوناتا عن هذه التمتمات، وبعض الدموع البادية في جفني!

أجابتها بتأني شديد، وبعض الوجل:

- الجمال أحد الأشكال التي يظهر فيها الرب، فعندما نرى الجمال لا بد أن نذكر الله و...

سوناتا مقاطعة:

- آه.. لهذا دوما تتذكر ربك كلما رأيتني فقط لا أكثر...

"كانت تبتسم ووجهها في غاية السعادة ويعلوه خجل ممزوج بالعُجب لاعترافي بجمالها".

- وهل هناك أجمل من امرأة مثلك؟

- (صمتت سوناتا ولم تجب)؛ هل كان صمتها لأنها لم تدرك أبعاد السؤال؟! فأضفتُ

- محبّة وشغوف وذات رأي و...

- (مقاطعة بحماس): لقد قلت من قبل أنك لا تُباري في الكلام عندما يصفو ذهنك.

المكان والجو يساعد على البوح والاعتراف بالأمر، فكادت تخرج من فمي عبارات الود والإعجاب والوفاء، لمعروفها الذي صار هيامًا، ولكنها تلاشت كلها عندما تلاقت العيون فجأة، ثم زاغت سريعًا.. لا لشيء إلا الإنكار، لكن سوناتا بدأت بالهمس في أذني مرة أخرى...

- ما أغناك في الحوار، وألذ مداعباتك مع الأطفال.. لك منطق راق وبداخلك شلال من الحضارات مخزون متوارٍ... فيك شيء جذاب جدا.

- ما أخبار دروس اللغة العربية؟

- كنت أود أن تساعدني أميمة...
- سهلة.. ولن ترفض أميمة لي طلبا.
- أهذا الطلب لي أم لك؟ "كانت لكنة السؤال توحي بالغيرة".
- بأي حق يتم الفصل بيننا، سأتجاوز عن خطئك هذا فقط.. حتى يتم البت في أمر الغائب.

أعجبتها الجملة، وأتعبها البحث عن رد، فصمتت، وهزت رأسها إعجابا بالرد.

- سوف أبحث عن هذا الغائب بأسرع مما تتوقع حتى يتم الدمج والتلاقي.

(١٠) طريـق التـلاقي.

استطعتُ أن أنهي فصلا دراسيا كاملا في ثلاثة شهور فقط، بالإضافة إلى العام الذي سبق، وأن وفرته بالمراسلة عن المقررات المصرية، فحق لي البقاء هذه المدة الباقية بلا عمل، وفي المقابل لكي يحق لي البقاء لم أعتمد شهادتي من السفارة، فظللت بالبلاد على أني مبعوث يستكمل دراسته لكن الحب الباقي لوطني جعل السؤال يتقافز في ذهني... "هل راتبي الحالي حلال أو حرام؟".

سألت قلوب زملائي: البعض قال أنه حلال على أساس أن هذا المال مكافأة سرعة الإنجاز، فلو أني تمهلت ونلت قسطا من الراحة فكيف يكون الحال؟

لجأت إلى صلاح -صوت الضمير المصري- الذي كان له رأي آخر بين الواجب والفريضة: "نحن بلد من الفقراء نعاني من أجل ادخار هذه النفقات بالكاد، وعلينا - نحن- أن نصون هذا الوطن (رغم خلافاته مع الساسة إلا أن حب الوطن، والحلم له يسكن خياله وأغلب عقله) فعليك يا عمر أحد أمرين: إما أن تأخذ إجازة بدون مرتب طوال المدة الباقية، وترتب أوضاعك المالية بالعمل، أو - هو المتاح لك والأفضل لنا- أن تسجل في دراسة مقاربة لتخصصك، ويكون مقررا صغيرا نسبيا".

ظهر حل ثالث: هو توفير منحة أستاذ زائر بنفس الجامعة، واعتمد هذا الحل على مجهودات سوناتا.. الملحق الثقافي لم يقتنع بالفكرة الأولى لأنها شبه محالة بل هي المحال نفسه، أما الثانية: فهي تعود لك وللجامعة والمكتب الجامعي بالولاية... أما الثالثة: فهي صعبة ولكن حاول في هذا الاتجاه إن كانت ستصبح نقلة جديدة جدا.. أستاذ زائر بألمانيا في ختام العقد الثالث.

بالفعل استطعت أن أسجل في مقرر إضافي كأنه ماجستير، ولكن بفكر جديد على طبعي وهو الطابع المعرفي لا من أجل الشهادة، كانت سوناتا - كالعادة- بمساعدة السيد إدلر الأستاذ المتحمس لي للدخول في مقرر ملحق آليات الحاسب المتقدم "كمحلل نظم ومنسق برمجيات" يجيد التعامل مع الأفكار وتحويلها إلى علاقات على جهاز الحاسب الآلي.

كان مقررا شيقا ولذيذا، فكل جديد له جاذبيته خاصة أهم ما يميّز هذا المقرر أنه يتطلب إطلاعات واسعة بالإضافة إلى فكر مرتب، وذهن صاف، ورؤيا واسعة...

من هنا استطعتُ أن أكون يدا ثالثة لبعض الزملاء المتعثرين، وكان على رأسهم صلاح الذي بدا عليه أنه يعاني من السيد راشكوفسكي الروسي الفكر... والكرو اتي الجنسية... واليهودي الديانة.

"لست أدري كيف يأتي صلاح بكل هذه القدرات غير العادية؟ فهو يصبر على تحكمات راشكوفسكي ولا يبالي بالإحباطات التي يسببها له، ويسيطر على انفعاله بشكل غريب ويمضي للأمام في دراسته متأخرًا بعض الشيء..

لكن بتفوق ملحوظ وأكثر من مرة يشهد له السيد ماير الذي قلما أن يتدخل في سبيل طلاب البعثات الأجنبية.. وسوف أستغل هذه الشهادة لأشكو راشكو في الاجتماع القادم".

كانت سوناتا تعلق على تقارير الإشراف والمتابعة الواردة لها عن صلاح وكنت أمسك عن التعليق..

"لأنها لا تدري أن هناك شيئا كامنا في نفوس كلً منا.. كأنه صار طبعا فينا بأن أهم وسيلة لردع الظالم هو الصبر عليه، وبخاصة إذا كنا بحاجة له، وكم كنا نعاني من أمثال راشكو في أرض الوطن.. حتى أن راشكو لا يمثل لهم أي شيء".

هكذا تأخر صلاح في مقرر اته وسبقه عزت الذي يعمل على مهل حتى لا يقع في مظنة الحلال والحرام عن أموال البعثة من ناحية، والأهم هو إتاحة الفرصة لأميمة لكي تنال على الأقل دبلومات التخصص في دراساتها.. لقد سقط من أميمة حلمها القديم واكتفت بأنها أم وصانعة لجيل تال، وحارسة على نجاح الجيل الحالي، هكذا يرد عزت الجميل.

"ما دامت كل هذه الطاقات فيكم رجالا ونساءً.. فلماذا أنتم شعوب متخلفة"؟!

أحد التعليقات التي كانت تلاحق مجموعتنا إذ ظهرنا بالجامعة.

واستقر الوضع في مجموعتنا على هذا، بالإضافة إلى أنه لاحت لي فرصة عمل بتخصصي من خلال أحد الزملاء الألمان، ودخلت مضمار خطر جدا، هو (الأرصاد الفلكية للأقمار الصناعية عبر المحطات الأرضية)..

وهو مجال تطبيقي لدراستي التي تتلون بالجانب العسكري.. كنت أحس دائما بأني تحت مجهر أو تحت الاختبار.. لماذا؟.. لا أدري!

بدأ غزل الذئاب من عدة نواحٍ. سواء بالغزل العلمي، والإغراء بأن الشق التطبيقي الأكاديمي متاح هنا، فلماذا لا تبقى؟! هنا ستتحقق كل الآمال المادية سواء قلت أم كثرت وسنتكفل...

هنا قاطعت الحديث قائلا:

"من سيتكفل؟ ومن يريدني؟ فحسب علمي أنكم لا ترحبون بالأجانب أو بمن يستغل الضيافة ويحولها إلى إقامة.. بل تنكرون هذا التصرف".

الجواب كان ردًا مراوغا لا تفهم منه شيئًا أو حتى لا تفهم من يمول هذه الشركة التي أعمل بها.. فهي شركة دولية في مجال الأبحاث الفضائية، بدأ الأمريتقافزفي ذهني بشيء من الريبة.. مجرد إحساس.. لعله كاذب!

عندما حاولت الفرار معتذرًا، بأني مرتبط بجامعة في مصر، ولو حاولت الاستقالة فسوف يسجن والدي.. كان الرد جاهزا وسريعا...

"لا دخل لك بهذا..سنتصالح مع الجامعة الأم.. ونرد ما أُنفق وزيادة بأي شكل حتى لو كان الأمر الواجب هو استضافة فوج دراسي كامل... إذا لم تعجب بكل هذا سوف نيسر لك قرضا من البنك وعليك أن تسدد على مراحل للبنك".

أمام هذه الإغراءات ليس لك سلاح إلا الصمت، والتستر وراء المو افقة المؤجلة المعلقة على حبل الزمن... والوقوف على سلم الأمل بالعمل

معهم لأنها فرصة.. لكن - والحمد لله - ألهمني الله بألا أتورط معهم في علاقات مادية أو ديون، وكم أرهقني هذه اليقظة.

تأكدت ظنوني وشكوكي عندما سأل أحد الإداريين بالمحطة عن إجراءات طلاق سوناتا، أهذه محاولة لكسر أنفي وإجباري على البقاء بالشق الإنساني والعاطفي في نفسي؟ هل سوناتا حلقة ربط من زمن معهم؟.. لا أظن.. فسوناتا انخرطت في تعلم العربية على يد أميمة وأخذت تبحث عن الغائب من خلال مكتب محاماة ذي رخصة تحريات.. فوق هذا هي تحاول الدخول إلى عالم العرب بأكثر مما يجب من خلال الكتب والرو ايات، فقد كانت أصداء فوز نجيب محفوظ بنوبل في الآداب منذ ثلاث أعوام والترجمات له متوالية... وذات مرة وجدتها تسألني باندهاش و انزعاج عن الذي تقرأه وتجد أحيانًا عندي أجوبته.. وتارة أخرى استنكارًا.. وكثيرًا ما كنت أعتذر بعدم الفهم... وأكثر ما نال انزعاجها هو دنيا الأفلام.. فقد كانت تشاهد وترصد بلادنا من هذه الشاشة.

"ما أصعب التناقض في حياتكم أنتم أصحاب دين، وعادات وتعاليم، لكن أفكاركم في الكتابة اشتراكية..أو بمعنى أدق يسارية، وطموحاتكم أوربية.. ما هذا اللغط؟ أي اتجاه تفضلون؟!

لا أدري؟ هل تظنون أن الجمع بين هذه الاتجاهات أمر هين أو حب الجمع والتعدد امتد من دنيا النساء إلى الفكر والتوجهات السياسية؟ أما عن دنيا الخيال والسينما.. فلم أرِ إلا و اقعا أوربيا، لكن يمتاز بالسذاجة، وتنكر و اقعنا كأنك قديس أو ملاك نزل من السماء، وأن أرضكم أرض الأطهار

الأخيار، وأحط الجرائم أراها في أفلامكم، فنحن إذن لا نتجاوز إلى هذا الحد".

تعليق سوناتا الهادئ الصائب إلى حد بعيد، ونقدها المترقرق من عباءة السائل المستفهم، جعلني أقف صامتًا، ولهذا سيكون دفاعي كلامًا خطابيا لا أكثر، لكني وجدتُ حجة أدفع بها بعض الحرج عن دنيا أدبنا الذي بعدتُ عنه منذ سنوات.

"سوناتا، ليست هذه بلادي ولا أفكار أهلي.. إنما أساليبكم وقوالبكم قدمتموها لنا وللعالم.. لكن للأسف لم نفرق بين الفن وبين التقليد الساذج بلا سبب، وبلا داعٍ وبلا مبالاة في نسج قصص من وحي مشاكلكم... لماذا؟ من أجل الحصول على جائزة، أو لفت نظر النقاد الكبار في بلادكم، والأشر هو التشويه لفكرنا؛ ليقال عنه أنه ذو فكر مستنير، أو من رواد النهضة في الشرق".

كانت هذه إحدى المداخلات بيننا عقب مشاهدة فيلم عربي، مأخوذ عن نص أوربي..

سوناتا: لقد لاحظت ازدواج المعايير، وصرت أخاف أن يكون ما أفهمه غير الحق، وهل سأعاني مثل نسائكم أمامي على الشاشة؟ يبدو أن الرجال سواء... كانت سوناتا تلمح إلى همها الخاص وهو الطلاق.

تدخلتُ: إن كان الطلاق دواءً مرا فمن يطلبه يدفع الثمن.

- لكن ما رأيتْ، وقرأتْ عنكم غير هذا.

- هن مثلك، يحاولن أن يظفرن بأكثر من حقوقهن تحت شعار الطلاق... بالمناسبة الفساد عندنا سببه، هو التدخل في شريعة السماء أكثر مما يجب، ففسدت العلاقات.. وليس أدل على هذا من أنكِ على وشك الارتباط وتسألين عن الطلاق.. أي: إن المعني الأبدي لم يطرق على ذهنك، و أنت تفكرين في زواجنا.

خجلا حاولت سوناتا صرف الانتباه عن الموضوع إلى منطقة أخرى، وهي منطقة الطلاق..

- لقد بعث لي المحامي اليوم فاكسا، يطلبني يوم السبت القادم.
- سوناتا، هل أستطيع الحضور معك يومها؟!
- كنت أود هذا، ولكن خفتُ رفضك.

لقد أصبحت مستعدة للتنازل عن أي شيء في سبيل الطلاق، حتى ولو كان الفيلا ولكنها مبدئيا تطلب التفاوض، كانت زيارة المحامي فرصة للاقتراب مع سوناتا بعد فترة ابتعدت فيها بسبب الدروس من جانبها.. وترتيب أوضاعي في العمل، وبدأت أحس برقة سوناتا أكثر وأكثر.

كان المحامي يؤكد لسوناتا صعوبة إثبات حالة الخيانة على كولر، لتنال به سوناتا الطلاق..

تحدثت سوناتا بغل ومرارة وإصرار غريب على إثبات هذا مهما كلفها..

- سيد إميل، هل حاولت تدبير لقاء مع كولر، لتعرف ظروفه؟ وإن كان يرغب في الطلاق.. فما هي شروطه؟ هكذا أوضحتُ آرائي كلها في سؤالٍ واحد، ضحك إميل ثم قال أثناء وداعنا:

- أبناء الشرق، دوما مسالمين لا يطالبون إلا بالحد الأدنى من الحظ، حتى إذا كانوا أصحاب الحق.

في طريق العودة كانت سوناتا ساخطة لحظة، وفرحة لحظة، لكن دافع الظن بالفرح غلب عليها لأنها أيقنت أني أتعجل التلاقي.. لكن هذا لم يمنع أن أشرب كأس نقدها البارع.

- هل أفهم من هذا أنك عند أي مشكلة سوف ترضى، وتضيع حقوقي أمامك و أنت صامت؟!
- بالتأكيد لا.. لكن إذا كان حقك، فسوف أموت من أجله، وما أجمل هذه الميتة، لكن لا داعي أن أفسد حياتي بهم زائد، و أنا في غنى عن هذا الحق.
- لكن لماذا أتنازل عن حقي ما دام هو حقي؟
- انظري لها من زاوية أخرى، كم ستدفعين للمحامي في سبيل إثبات هذه الخيانة؟
- لا دخل لك بهذا.
- "عرق الغبا نط".
- ماذا تقول بالعربية؟
- افرضي أن كولر هو المحامي، وادفعي له هذا، وليكن فر اقا بالتراضي.
- يبدو أنك لا تفهم، في حالة التفاوض هو القوي، أما عند إثبات الخيانة فأنا الأقوى و أفرض شروطي.

- ساعديني، لنبدأ حياتنا سريعا وبهدوء.
- أنا لا أفهم هذا المنطق المتخاذل.
- لكِ الحرية في قرارك، ولكني أشاركك همومك، والقرار لكِ حتى حين.

عاود المحامي الاتصال بنا سريعا، لنختار موعدا، لكي يتم اللقاء بين سوناتا والسيد كولر.. كنت في غاية الخجل والخوف، لأني بأي حق سأحضر هذا اللقاء، لقد زلت قدمي، ولا تراجع.. كان كولر صاحب منطق مرتب، فهو فني ديكور محطم الآمال –في مجال الرسم أو النحت– شتت جهوده بين الفن والحياة، فلم ينل هذا أو ذاك، وبعد أن أعرضت عنه زوجته دخل نفق الخيانة العفن كحب للحياة أو البحث عن الذات.

ردنا صوت إميل المحامي وهو يقول:

- لسنا في مجال البحث عن الخطأ، والإصلاح، ولكننا هنا من أجل التفاهم على الفراق بلا ضغائن وبأقل خسائر، ولولا (دكتور عمر) ما كنا سمحنا بهذا اللقاء.
- شكرا للدكتور، لكن المهم أني لن أخسر شيئا. هكذا رد كولر بشيء من الاستخفاف.

المحامي: لا داعي للعناد فأنت على الطرف الآخر من الحبل، ولو جذبنا أو تركنا لسقطت، وأدار المسجل عن شريط لفتاة تعترف فيه عن مستوى علاقتها بكولر، وأنها تقيم بشكل دائم مع كولر بموجب عقد بين سيدها صاحب منظمة لبنات.. وأنها تقيم فى ألمانيا على أساس اللجوء السياسي.

لعن الله الحرب ومن أيقظها! أظنها بوسنية وكدتُ أجن، كيف أصل لها؟

شردتُ في خواطري لكني عدت على صراخ سوناتا وهي تلوم المحامى قائلة:

- لماذا تخفي عني هذا من زمن؟! فهذا كافٍ لي جدا.

كولر: و أنا أرى أن لكِ أيضا رفيقا من الترك البر ابرة الفسدة.

تدخلتُ: (و أنا أكتم غيظي) لا داعي للسباب، كل حقوقك سترد لك أهذا يرضيك؟!

كولر: هل ستدفع عنها يا ابن الترك؟!

أجبتُ: (بحدة وصرامة) يجب أن تقبل بما أقول لأنه الحل المتاح، ولاحظ أن سوناتا تحملت عنك ديونا كثيرة، ولكن سوف أغض الطرف عنها وسأدفع كل مالك نقدًا.

كادت سوناتا تنفجر وتثور، لكن وقفتُ وعيناي جاحظتان مشيرا لها بالصمت والهدوء، وللعجب استجابت.

المحامي: لماذا كل هذا السخاء يا سيد عمر؟ ونحن معنا الشريط، ولو قدم للأمن والهجرة لن يسلم كولر من بطش رجال المنظمة، وللعلم أحدهم في الخارج رتبت موعدا معه لعلك تعرفه.. انظر له جيدا من خلف زجاج المكتب الآن!

انزعاج كولر كان مبالغًا فيه وما سر ارتباكه؟ إنه مجرد جامع فراشات... هناك شيء غير مفهوم في القانون -بالنسبة لي- هل الدعارة المنظمة مجرمة، والمتعامل معها يعاقب أيضا؟... ربما.

كولر: (مترددا).. بالتحديد ما حقي؟ وكم سيكون ثمنه؟

المحامي: معنى هذا أنك قبلت العرض المادي؟

كولر: نعم.

المحامي: إذن فكر فيما يخصك، وسنرى إذا كان مبالغا فيه أم لا..

سوناتا: سيد إميل، أنت معك قائمة بكل ما نملك، وما أود الاحتفاظ به.

المحامي: نعم، و أنا أرى أن ما يحدث الآن إضاعة للوقت، وثرثرة فارغة.

انتهى الأمر، وخرج كولر، وهو يحدث نفسه، ولكنه ألقى سؤالا بصوت عالٍ شيئا ما:

"لماذا لم نتصارح، ونتفاهم حول حياتنا من قبل يا سوناتا؟!".

وأكد أن الزمن قد دار ليأتي ابن الجنوب ليحتل أرض الشمال، ويأخذ من بناته زوجة.

ضحكتُ مع إميل وتشابكت أيدينا، وسوناتا ساهمة لأنها لا تفهم..

"هذه حيلة من وحي فكر عمر وعملي أنا.. فهذا الشريط مزور في معمل صوتيات.. لكن المعلومات صحيحة، لقد صار كولر يتاجر برفيقته خارج المنظمة ويضم إلى بيته الحالي بنات جُدد هاربات عبر الحدود ليصرن جواري الحروب المقدسة الجديدة ، لقد أصبح كولر أخس من نخاس...".

بعد أن شرحنا لسوناتا كيف تمت الحيلة و أننا سجلنا حوارا عاديا لصوت رفيقته.. أحضرنا خبيرا فى المجال ليخرج لنا نفس الصوت ويضمن الشريط جملا محدد وهي التي أرعبت كولر.

أعجبت سوناتا بحيلتي وفكري، وكيف إذا اجتمع عربيان انتصرا، لأن إميل من أصل لبناني..

كانت لي هنا وقفة مع سوناتا لكي أوضح عدة نقاط هامة.

- هذا هو أول انتصار يتحقق على طريق أسرتنا الصغيرة.

- عمر، أسعيد بهذا الانتصار؟

- إلى حد ما، ولكن خوفي أكثر من سعادتي.

- ما دخل الخوف، وتحميل اللحظة أكثر من معانيها.

- ليس بهذا المعنى، لكنه استنتاج واستنباط.

- دع هذا الحديث من فضلك.

- ليس برجائك، أو أمرك قبل أن أوضح لك مصدر خوفي.

- لا تفسد اللحظة في الحديث.

- لا تداخلني في الحوار، بدأت أركز نظري على الطريق، وأمسك مقود السيارة بجدية، ولم أحاول اختلاس النظر لها في هذه اللحظة، وأخذتُ أوضح سبب خوفي.

هل أنت متقلبة المزاج لهذا الحد؟، وإذا فارت ثورتك لن تذكري لي لحظة ود وصفاء، بالإضافة إلى هذا هل لا تقدرين أزمة رجل عند محنته؟ وإذا حدث بيننا خلاف هل سوف تحاولين ابتزازي والضغط عليّ لتنالي ما تريدين؟

- لا تخلط المواقف، أنت حالة وهو حالة أخرى.

- يا...

- انتظر حتى أكمل..

- تفضلي.

- ألن تحتفل بهذا الانتصار؟.. إذا كنت تود الاحتفال، فدع هذا الحديث، واحتفل معي بهذه اللحظة.
- لكِ كل ما تتمنين، فكل أحلامك مطاعة.
- أود السهر في المطعم اللبناني، وآكل ما كنت تأكله.
- (ضحكتُ).. لا تحاولي فهي مهلكة بالنسبة لكِ، وبخاصة ونحن في وقت العشاء.
- انظر.. هكذا ترد لي أول أُمنية!
- إذا فعلت وأكلتها معك، فلن ننام، وغدا عندي ارتباطات بصالة الحاسب.

كانت سوناتا محلقة في السماء.. وأول مرة أرى فرحة الطفل على صفحة مشاعرها.. فها هي أصبحت امرأة مرغوبة.

أثناء الجلوس وانتظار حضور العشاء، أخذت ألمح لسوناتا ببعض الأفكار، حتى أضعها إلى جانبي، أو بمعنى أدق ألفت نظرها لنقط مهمة ستكون أساس التلاقي بيننا.. بمعنى أدق: كنت أرفع قواعد أساس البيت.

"العروض.. هنا تنهال عليّ بشدة، وكثافة غريبة، وكأني أحمل الجنسية، حتى إني رفضت بعضها لهذا السبب حتى وجدت أحدهم يقدم العرض، ومعه الجنسية بدون شرط الزواج".

توقفتُ، لأرى رد فعل سوناتا، وتعبيرات وجهها عند هذه النقطة بالتحديد، فأنا اخترتُ بهوى العقل ويبدو أنها أحست بما أرمي له، فصمت بطريقة مفاجأة، وكأنها تسأل... وماذا بعد؟! ثم أكملتُ..

"أما عن النواحي المادية، فهي تقارب العقود الرسمية المميزة هنا؛ فيها الربح والراحة العلمية والشهرة، والمكانة الدولية..".

جاء الساقي ووضع أمامها الأواني الفخارية، واكتفيت أنا بطلب عشاء عادي من الفطائر.. و انصرف.

سوناتا: يا دكتور عمر، أنا أكره لحظة التذاكي، وأحب أن تحدثني بصراحة وبمباشرة فيما تريد دون تلميح، ألم نصبح واحدا من شطرين؟!

(صمتُ ولم أرد) لا أدري لماذا أفشل في الحوارات الملتوية مع البشر؟ عموما وما بالك مع من سكنت عيني وشغلت فراغ فؤادي، وفوق هذا متخصصة في مجال علم النفس، ضحكت وهي تتذوق (طاجن الكسكسي) بحذر، ثم رفعت وجهها، وقد بدأت عليه ملامح الحمرة من لسعة الشطة.

- يا سيد عمر، أنا كالجارية لك وأطيع أوامرك، حتى لو كانت أكل هذه القنبلة الحارقة...

كدتُ أضحك لولا أنها عادت قائلة: الآن فقط فهمت لماذا لا تشرب الخمر؟.. فهذا أشد "سُكرًا" منه.

- للحق قد أسعدني أنها ذكرتني بأنها تخلت و أقلعت عن عادة الشراب من أجلي.. ما أحلى الشعور بأنكَ غالٍ يبذل الآخر من أجل إرضائك!

(١١) صدمة الكبرياء.

كنت بالجامعة، لأعد أحد البرامج التحليلية للأرصاد الجوية لصلاح ليدفع بها عن نفسه شيئًا من ظلم راشكوفسكي الذي يدق طبول الحرب مع باقي أهله -أبناء الدم الأزرق- الصرب، ليطهروا أوربا من بقايا الأتراك وزبالة العالم.. كنت أرقب هل سينجو أو لا؟

- ما دام الأمر مشاركة وجدانية ونفسية، وفيها بعض الإفادة العلمية لنا جميعا، فسأحضر معك.. هكذا كان قرار عزت عندما حدثته هاتفيا، لألومه على انقطاع الاتصال، فهو يعلم كل أخباري عن طريق سوناتا بالجامعة، أما العكس فنادرًا ما تترك لي سوناتا خبرًا عن عزت سواء عن طريق أميمة، أو عن طريق العمل.

حضور عزت معي كان صمام أمان لهذا اليوم، فلولاه لكنت طريح الفراش من جراء صلاح وغضبه!

دخلتُ مع عزت شقته، وأنا أغلي من الغيظ، لأني لم آخذه في لحظتها.. لكني أحسستُ بهدوء يتسرب إلى نفسي مع الدخول إلى شقة عزت الصغيرة المرتبة جيدًا، وقليلة الأثاث، بل هي تكاد تكون معدومة الأثاث.

لم تسأل أميمة عن شيء، بالتأكيد لاحظت أننا في حالة غير طبيعية، لقد شُل لسانها كثير الحركات. بادرها عزت، قبل أن تسأل بمجرد أن عادت، وجلست إلينا بأكواب الشاي.

بدأتُ الحوار، و أنا أتناول الشاي:

- جزاء المعروف ضرب الكفوف..

عزت: ليس إلى هذا الحد.

أميمة: "أصل الحكاية من فضلكم".. كدتُ أن آخذ زمام الحوار.. لكن عزت منعني بأدبه المعهود، وأخذ يقص الحكاية.

"اليوم راحة بصالات الحاسب، والمكان هادئ وخالٍ من الأخوة البُعَدَة.. راشكو وزملائه.. وعمر –مشكورا– ينوي إنهاء البحث على الحاسب لصلاح، وفعلًا بدأ صلاح العمل، وأخذ يشرح لعمر المطلوب، وعمر يسجل ملاحظاته في الورق، حتى بدأ العمل على الجهاز، ويشرح لنا ويداعبني ونداعبه، تارة نقول له: يا دكتور.. ما أنت صحيح" "برف يا أف"، ويرد قائلًا: لله يا شرحي.. حتى وصل بنا الحوار إلى الحديث عن سوناتا، وأخذ الحوار شكل الجدية من كلا الطرفين بلا داعٍ أو مناسبة.

أميمة: كيف وصل الحوار لهذه النقطة؟

عزت: للأسف عن طريقي.. لقد هنأت عمر بحصول سوناتا على الطلاق، وداعيا له بالزفاف العاجل.

ساد الصمت لحظة حتى عادت أميمة تسأل..

- وماذا بعد؟

عزت: سأل صلاح عن سر الإصرار، والتمسك بسوناتا بهذا الشكل.

أميمة: قسمة ونصيب.

قلتُ : بالضبط هذا ما قلته، ولكنه عاد يدس أنفه سائلًا.. هل فقدت مصر بناتها؟

هنا قاطعني عزت: كان الواجب عليك في هذه اللحظة أن تجيب إجابة عامة وتتعلل بالحاسب ليسود الصمت.

أميمة: بالتأكيد كان رد السيد عمر مشبعا بالغطرسة، والفلسفة.

عزت: إلى حد ما.

"يا صلاح، لقد اخترت بنتا من بنات الحرية الكاملة؛ ذات رأي ومذهب.. قوية لا أنكر، ولكنها لحظة من ساعة. تفهم معني الحرية، ما عليها وما لها، أما عندنا –فللأسف– لا هن بنات الأبواب المغلقة، ولا هن الغربيات الفاهمات العاقلات".

كنت أعيد ردي على صلاح أمام أميمة..

أميمة: بحق، أهذا رأيك فينا وفيهن؟

عزت : ليس هذا هو المهم، المهم أن (صلاح) أخرج كل غضبه من أبناء البلد على رأس عمر بحجة المنطق المغلوط، وأخرى بالحكم المشوش.

"بيذلونا، وبيدبحونا، ويحاربونا، ورغم هذا نتزوج منهم".

دخلتُ مقاطعا: أكمل.. ماذا قال بعدها؟

عزت: يعني، هو أنت سُكت!

أميمة: جميل هذا الفاصل من "الردح".

عزت: الأخ المحترم عمر، عزف على وتر مريم.. عزف منقطع النظير قائلًا: "أصل مريم محدودة التعليم والقدرات، وأنت تأكُلك نار الغيرة...".

أميمة: "بس كفاية، أنت نظرك يا عمر شيش بيش".

إلى هذا الحد تحرجه؟ أنت هكذا أكدت لنا أنك لا تعرف، أو تفهم الأصدقاء إلا في حدود العمل والدراسة فقط... قبل أن تسأل سأوضح لك..

أنت ثُرت، لأنه يسأل عن زوجة المستقبل بشكل فظ، وتجرح زوجته، وليست أي زوجة كما تعلم، إنها عِشرة قاربت عشر سنوات، زوجة يختارها العرف، وتتمكن من قلب زوجها، والعكس.. أنت لا تلاحظ، مريم امرأة أُعِدَت، لتكون هكذا (عمود بيت).. فوق هذا لاحظ البعد المحافظ في شخصية صلاح، فهو لا يهاجم سوناتا ولكنه يدافع عن بنات الوطن لا أكثر.. بالمناسبة مريم لبقة، وذات لسان وثقافة، لكن في الوسط النسائي تستطيع أن تكسب ود الصخر والحجر.. هل سمعت أنها تُعلم سوناتا رقص الغوازي كلما تم لقاء بينهما؟".

هنا ضحكت أميمة، وهي تذكر الملحوظة الأخيرة، لكن أميمة سألت وهي ما زالت ضاحكة..

كيف استطعت أن تفض هذا الاشتباك؟ ـ كانت تتحدث إلى زوجها ـ و أنت لا حول لك ولا قوة، بين اثنين من قاطفي البلح.

عزت: شكرًا يا مدام، كان عمر بجوار الباب فدفعته، وأغلقتُ الباب وركزتُ جهدي بأن أقنع صلاح أنه المخطئ، لأن عمر هنا للمساعدة الاختيارية، ويتوقع الشكر لا التجريح.

أميمة: لا داعي للوم، سنحدد ميعادًا نزور فيه (صلاح) جميعًا بصحبة سوناتا، وعندها سيذهب كل شيء مع الريح.

قلتُ بأسى: هذا لا يجب.. إنه كثير.

أميمة: خلاص أنا حكمت، وعمر لا يرد لي حُكمًا، "أصل أنت عارف".

عزت: المهم يا عريس متى الفرح؟

أجبتُ: بعد شهر، سنغادر لجولة في البلقان وتركيا.

(١٢) عازف لحن الحياة.

قبل الزفاف، ذهبتُ إلى صلاح في بيته بصحبة سوناتا، لأدعوه للفرح، وقبل الدعوة انقشعت السحابة السوداء سريعًا، ولكن دعوت الله أن ينتقم لصلاح من راشكو، فلولا أن (صلاح) ذو عائلة لا تنقطع إمداداتها له، لمات من الجوع هو وأولاده، ما زلتُ أذكر يوم أن تزوج، ونحن طلبة بالجامعة، كان حدثا غريبا.. العائلة المحافظة تستثمر أموالها في مجال الإنسان، ولأول مرة نسمع عن معنى الكفالة في الزواج، ونفهم هذا المدخل الجميل.. ما زلنا نذكر حفل زفاف صلاح في مركز على طرف المدينة، وأخذ الفرح شكلا تقليديا فكنا نأكل على دقات الطبول، ولهذا حاولت أن أقلده في ألمانيا قدر ما أستطيع، فاخترنا يوما يلائم الصخب والضجة المتوقعة من طلاب البعثات العربية.

يوم مرور عام على توحيد ألمانيا، ذابت نغمات فرحي مع فرح الألمان، واستوقفني أن احتفالهم كان له شكل التوقع، أو أن ما يحدث واقع شاهدوه من قبل، ليس هناك وهج المشاعر الشرقية التي لا أستطيع أن أنساها أو أسأمها فهي قوام عظامي ونسيج لحمي.

ركزتْ الأضواء على السيدة/ كاترينا ميريكل في الاحتفالات.. من باب (الموضة) ففرنسا بها امرأة تقود ومن قبل إنجلترا، وما المانع أن يحدث في ألمانيا؟!

لكن الألمان يقبلون كل وافد جديد عليهم بمهل سواء كان إنسانًا أم فكرا أم فعلا "لا استيراد هنا، إلا لكل نافع وصالح".

أكدتُ أيامها أن هذه المرأة هي خليفة القيصر الحالي (كول).. ضحك مني البعض، ولكن أكدتُ أن أنفي لا تخطئ في حاستها السياسية، وأكد عزت على هذا.

استمر الحفل، ومارلين تحاول أن تقلد سوناتا في رقص الغوازي، ولم تنجح.. أحسنت مريم أنها معلم بارع، وبالتالي فهى بالتأكيد راقصة بارعة لكن سعادتي أن الكل يحاول أن يفرح، بلا ادعاء للوقار أو مظنة ماذا سيقول الناس عني؟

استقر بنا الوضع في الفيلا لمدة أسبوع حتى يحين موعد سفر الفوج السياحي.. ما هذا؟ حتى عند الفرح والاحتفال لم يغب عن وعيها معنى الحرص، وترشيد النفقات.

ما زالت أصداء الليلة الأولى بيننا ترن في ذاكرتي، مع شيء من الاندهاش.. فبعد أن انصرف المدعوون، وحق للمرتجي أن يرسو على شاطئه ليروي ظمأه ويداوي كدّه.. لم أجد من الداعي أن أسرع، أو أتعجل هذا الرسو، فجلستُ مسترخيا في حجرة المكتب.. تلك الحجرة التي بتُّ فيها ليلتي الأولى منذ سنوات مرت سريعًا... لم أعد أهتم بحسابها.

أخرجني صوت نداء سوناتا غير المعتاد، فقد كانت رنته غريبة لم أفهمها إلا عندما اقتربت مني و أبدلت إقامتي من الكرسي إلى الأريكة، لنتجاور معًا في الجلوس.. أثناء وقوفي مددتُ يدي لضم يدها أحسستُ وتأكدتُ أنها ليست في حالتها الطبيعية، فيدها بها من البرود الكثير، والعجيب قلبتُ يدها

وطبعتُ قبلة في راحتها، ثم همستُ لها مهنئا وراجيا أن تكون شجرة الأمل التي أرتكن إليها دوما.

ابتسمت بخوف، وكأنها ترقب وترصد لا أن تتفاعل وتشارك ، يبدو أن سوء السمعة عن أبناء الشرق وصل إلى هذا المجال.

جذبتُ يدها الأخرى، و أنا أداعبها سائلا عن سر هذه البرودة؟ و أني سوف أعيرها من دفء يدي، وإلا فسوف أطلب تلك القنابل الحارقة من المطعم، ابتسمت وقالت:

لاتحزن، فقد أعدت أميمة من مثيلات تلك القنابل الكثير بالمطبخ العلوي.

صحتُ بها:

حقا.. هيا.. هيا إلى فوق... فأنا جائع.

وجذبتُها بقوة مقصودة، لتتلاقى الأنفاس وتتلامس الأكتاف، ألقت برأسها على صدري...، فلم أردها، وصعدنا الدرج على مهل.. فدقات قلبها عالية، فإني أسمعها كأنها أشد وقعا من طبول البحارة، لم أسألها.. أهي طبول الفرح أم طبول الخوف، والظن في المجهول؟

لا بد أن شيئا ما غريبًا قد حدث.. فكل هذه الطاقة والقدرة الكامنة فى سوناتا و اقفة معطلة.. لماذا!

"لقد كنتُ ضيفًا يتلقى من كرمك واهتمامك الكثير، الآن فقط أستطيع أن أرد جزءًا بسيطًا منه يا...". (أمسكت عن الكلام)، فلم تسأل أو ترفع بصرها نحوي، فأكملتُ:

"يا شمس عمري، عليك أنتِ بالانتظار، وسأعد أنا العشاء، ولكن لا تعتادي هذا مني".

كنتُ أنطلق بجملتي الأخيرة، وأنا أرفع بصرها بإصبعين من أسفل ذقنها.

لم تنصرف وظلت معي وهي في صمتها الغريب، يبدو أن هذه أحد التعاليم العربية التي لا تخرج إلا من فم أميمة، لا أظن، إنها إحدى أفكارها التي استقرأتها في كتبنا وتفعلها معي.. ظللتُ معها على الجسر حتى اللقاء عبر المساجلات، والدعابات الصغيرة، حتى أفاءت علي بظلالها وعطرها وأريتها عزفي وأسمعتني إنشادها فتمايلنا فرحًا وسرورًا.. لقد سقط عنها قناع الخجل الذي ارتدته لترى أو تفهم ما معنى القوامة في ذهن البدائي البربري.. هل مبدأ القوة هو الغالب؟

أظنها أدركت أن الأكاذيب ما أيسر أن تلفق، ووضع الشاذ في الإطار أمر هين.. أسعدها إصراري على مسامرات المساء، إقامة الحوار حول كل شيء في حياتنا القادمة حتى عن حلمي بالأسرة الكبيرة والذرية.. تضحك باطمئنان، وتلمع وجناتها أكدتُ على هذه النقطة ومعناها وأهميتها..

باقي الأسبوع مر بلا مداراةٍ أو تعقيدات، كان الأساس قد وضع على الصبر من كلينا والرقة الحريرية واللين بين الطرفين، فلا استعجال في الفراق عند تلامس العيون، ولا تذمر عند البدء... سألت عن سر خباراتي وعن مدى تفهمي لها، على الرغم من الخشونة التي تبدو على طبعي!

كانت تتوقع أن يكون جوابي استعراضًا، ومباهاةً بأني صاحب تجارب في هذا الحقل.. ولكنها اندهشت لما علمت بأن هذا من وحي تقاليد الشرق، وتعاليم الحياة الدينية.

"حتى هذا، له باب في تعاليم السماء؟"...

كانت تبدو عليها الدهشة لا الإنكار ولا السخرية. "لم تحارب السماء الطبيعة في أبدانكم فمسارٌ للنفس.. ومسارٌللروح، ومسارٌللبدن".

لم أفهم الفرق بين البدن والنفس، ولكني تركتها في نشوتها، ولحظة إدراكها لكي تستمع بها.. في آخرالأسبوع وفي لحظة مسامرة اعترفت بأنها كانت تتوقع أن أكون أنانيا لا يراعي معنى الإعجاب، والاشتياق إلا من زاوية واحدة وهي رغبتك فقد حق له شراء الدمية، توقعتُ فيك الوحش وترقبتُ هجومه الضاري، أقول لك من باب الاعتذار عن ظني بك: فأنا ما زلت أملك نفسي لا كما كنت أتوقع أن أكون مستباحة سواء راضية أم غيرراضية...

لقد ملكنا إحساس واحد، فهي تحترم شغفي بها ورقتي معها، وأنا أسكر في سحر دلالها، فلا وجل أو خجل أن تكون هي مايسترو اللحن، وأنا فرقته.

ولعل أروع ما في سوناتا أنها تحس بمشاعري جيدًا ولا تحتاج مني أن أشدو لها بأغاني الوجد والهيام، وتحنو على ضيقي وكدري، وتزمجر إن تجاوزت في أي شعور حتى عرفت طبعي ومكمن رضائي فصارت تحرص عليه وتسعى إليه بشغف منقطع النظير... النضوج العاطفي الواعي شيء رائع

رائع... كم من هدية ساقتها لي السماء... جزاءً للصبر على السكنى أيام طوال في بطن الحوت.

(الحب سم وترياق)... كيف لي أن أنسى؟!

(١٣) ميراث العداء.

اجتمع الفوج لزيارة برلين الغربية في أول يوم، وقد كانت مفاجأة سارة لي خصوصا بأن سوناتا يسرت لأميمة وعزت الفرصة ليشتركا بالرحلة، ولم تذع أو تصرح عما بذلته من مال لتوفير هذه الفرص لعزت.

"الصداقة كنز ونعمة أحب أن أصونها لك حتى لا تظن أني أحب الاستحواذ عليك، وحتى تدرك أن الحب اجتماع، وصحبة لا فردية و أنانية".

هكذا علقت سوناتا عن سر إصرارها على حضور عزت وزوجته لهذه الرحلة، ويبدو أنها تود أن تفرج عن مشاعر الطفولة في صدري بمصاحبة أحمد بن عزت لي، لم نذكر (صلاح) أسير راشكو والعنصرية، والعداء الموروث.

أما إدلر ومارلين فصرحا ببعض معاني الصداقة، وأساس النظم التعليمية في ألمانيا، وكأن إدلر يعتذر عن تصرفات راشكو، لاحظت احتفاظ إدلر بروح الشباب، وسعادته بالرحلة كأي شاب صغير.. ركن الاسم الرسمي، والعلاقات و اندمج سريعا مع باقي الفوج حتى قبل أن يتعارف الصغار، غلب حب المهنة فيه الطبع الأوربي بالتقوقع، كان يستغل كل لحظة ممكنة ليقضيها في سعادة وبهجة ومرح قدر إمكانه..

صورة من صور حب الحياة التي للأسف الشديد لم أقدر أن أجاريه في إنتاج هذا الفن، فهو بالليل راقص و أثناء النهار جوال ولاعب كرة يد أو سباحة إن أمكن.

ضحكت أميمة وزيها كالعادة يستوقف معظم الفوج، لأنه لا يفهم سر هذه المثقلة بملابسها.. على حد قولهم.. ولا ما الغريب الذي يضحكها بهذا الشكل السافر..

كان بعض الرفاق في الفوج من الترك الألمان، وكان التعامل معهم يشوبه بعض الحذر في بداية الأمر.. إلى أن دخلت أميمة مع إحداهن وتدعى (إسلام) في حواروتعارف، ومن خلالها قدمت لنا زوجها السيد/ أوزيتونا.

وداعبه عزت من خلال اسمه راجيا أن يختصره، حتى يسهل النداء والتخاطب بيننا، فاختار أن يكون اسمه (تيمور).

أما سوناتا فقد صرتُ أراها كما لم أرها من قبل، طير مغرد ... فراش سابح في بحار النور، كأنها الصوفي بباب الإلهام لا يبرحه... تنهل من بئر اشتاقت إلى مائه وعسله ولبنه، لم أدر من أين لها بكل هذه الطاقة على التجدد؟!

لقد ملكت أمري وسلبت لبي وضمت حرثي، فهي لم تمل من ترديد مفردات لحن الحياة سواء كان إيقاعه لاهثا متلاحقا أو بطيئا مرتعشا صعودا وهبوطا، دائما تعبرلي عن سعادتها بهذا اللحن..

مرت زيارات أوربا سريعا، وما كادت أقدامنا تطأ أرض البلقان، حتى ظهرت لنا مارلين في الصورة حاملة على عاتقها كل الأسئلة الصعبة، والساذجة حتى السآمة، وكان تحت إبطيها منه الكثير.. استحوذ عليها السؤال والتحقق، أسعدها وجود هذا الجمع المتناغم من المصري والتركي

ذي الأصول الكردية في جوارها.. فتحت باب الحوار في هذا المجال بذكاء وحكمة، لن أقول بدهاء، فالمجال لا يحتمل هذا الوصف حين قالت:

"إني بجد في دهشة من أمري، ما من أثر أو حادثة تاريخية حدثت هنا إلا وعند أحدكم خلفية عنها أو إلمام، وفي أبسط الأمور لقد سمع بها من قبل أو حاول البحث عنها في الدين".

لم تسمح سوناتا لهذا المزاح الغريب أن يستمر:

- من فضلك.. مارلين، نحن في زيارة ونزهة.. لا تجعلي حوارك باسم الدين فتفسدي علينا الرحلة.. بالإضافة إلى جو الحرب الخانق هنا، سيندفعون جميعًا هجومًا علينا.

استجابت مارلين لكن في شق واحد فقط، وهو حذف كلمة الدين من الحوار بصوت عال، ولكن كانت تهمس في حواراتها الجانبية القليلة بها.

أخذ تيمور زمام الإجابة، وحمل عنا عبئا ثقيلا فما أسعده بهذه اللحظة! هو الآخر لأنه من أبناء نفس المهنة وهذا مجاله "الدراسات التاريخية للمجتمعات الإسلامية"..

"كلنا نلم بأصل ديننا، لأنه ملاصق لنا بل حتى ممزوج بدمائنا.. الدين هو الذي جعل التركي والكردي يقفون على أرض مصر ذات يوم ليردوا عدوان أوربا -عذرا الصليبية-، دخل الدين علينا وكنا فرقًا وجماعات فوحدنا وسعى كل عرق منا لخدمته وخدمة أخيه لأن هذه وصايا الدين.

الدين يسر لنا كل سبل الحياة وكلًا حسب طاقته لكن الأساس واحد المساواة أمام الله من ناحية، واليقين بأن الله لنا كلنا فليس هناك وسيط بيني

وبين ربي لأنه معي فى كل حين، لذا فأنا دائم الوعي و أتحمل المسئولية، وأرى أن أغلبنا مبدعون في ألمانيا، لماذا؟ لأننا ملكنا أمرنا".

سكتت مارلين حتى حين... فقد كنا في حديقة عامة، ولكي أوقف صراع الديوك أقمتُ مسابقة في شد الحبل تارة، وأخرى في نط الحبل، كنوع من السمر و إيقاف صدام متوقع.

"لا بد من كي الجرح حتى لا يتقيح أو يسبب الموت والهلاك".

هكذا صرح تيمور لي سرا على انفراد أثناء العشاء، وأكد أن السيدة مارلين ستعود للسؤال عن أشياء وأشياء.. لم يُنهِ هذا حتى انفجر أول سؤال له عن الخمر- سؤال مكرر- لكن الرد كان جديدا على سمعي رد تيمور قائلا:

"هل أنت ترميني بتهمة التحجر الفكري و أني مغلق العقل؟ هذا إن كان الفكر لي فيه الحرية بالاختيار أو حق رفض النصيحة إن كانت نصيحة.. ولكنها قوانين السماء لا حق لنا في رفضها أو قبولها بالمقياس البشري.. أي أننا ننفذ بلا اقتناع! نعم بلا اقتناع..!"

اتسع السامر، وغلب عليه شكل حلقة النقاش، وبالتأكيد أميمة كانت تحاول أن تحفظ عن (أوزيتونا) بعض الأفكار.

أدركتُ مدي فهم وعقلانية تيمور، حين أشار لها بأن السؤال التالي سيكون عن الحرب المقدسة في الإسلام، وكتاب الحرب المتداول بيننا.

أصابنا شجن قديم، فعلى الرغم من مرور الأيام فما يزال الصدى الغامض *يدوي* وما يزال هناك من يسمي تحرير الناس من العبودية بالإسلام

غزوا.. والحرب المقدسة تلك الحرب الطويلة التي رفعت شعار الصليب، وعندما فشلت.. غيرت أسلوبها وعادت فى شكل آخر.

أما كتاب الحرب فهو القرآن، حسدتُ تيمور على تماسك أعصابه بهذا القدر العظيم، ولكننا كنا نغلي بشكل سافر، استأذنتُ وبقي عزت ليصحب أميمة التي تحفظ كل هذا حسب المزاج الدراسي.

لكن هذا فجر في نفسي شكًا غريبًا، هل سوناتا تعتقد بنفس معتقدات مارلين أو أن مارلين تحاول أن تملأ فراغ حياتها الروحي بهذه العصبية المقنعة، فلا هي أشد ولاءً للكنيسة من سوناتا أو أشد اهتماما بحضور الآحاد؟

لكن أميمة في جولة أخرى لنا في تركيا ذكرت لنا باقي النقاش بين تيمور ومارلين، وكيف أن هذا الرجل خبير متمرس، حتى عندما أرادت أن تدخل عليه من باب الوحشية والهمجية في العقوبات الإسلامية، ردها بأدب ويسر، وأخرج الجواب من على لسانها، كانت أميمة تحكي هذه المو اقف بسعادة وشغف و اندهاش، ربما لأنها لم تشاركنا لحظة من (التركة الثقيلة).

"هل عيسى عندما كان يضحي، كان يضحي ليضرب المثل للناس لنسير على نهجه بالبحث عن حياة أفضل أم كان يضحي من أجل أن يتمتع الناس من ور ائه؟".

بهذا ختم تيمور حديثه في ليلة فض الميراث، كما أسمتها أميمة!

(١٤) من وراء القناع.

لم يهدأ لسوناتا بالٌ، حتى نلتُ إجازة بدون مرتب من الجامعة، عقب عودتي منفردا لمدة قاربت العام، واستقربي المقام في عملي بالأرصاد الفلكية، والتدريس بالجامعة طوال هذه المدة.

وسوناتا كما هي لم يبرد حنينها فما زالت تحتفظ بفوران الدم، ودفء اللحم إن لم يكن زاد، تعبيراتها الوجدانية الكلامية عندها محدودة، ولكنها عندما تتاح لها الفرصة لتعمل في سبيل إرضائي بالخدمات المتاحة حتى ولو كان مسح الحذاء، أو المساعدة في كتابة بحث، بحق تتفانى في سبيل صعود نجمي.. هل هو حب كسب الرهان؟!

هذا لا يمنع أن صوت عين العقل ترصد هي الأخرى كالعاطفة تماما، فللعقل أساليب وإن كنتُ أحب خلقا رفض هو الآخر ـ العقل ـ خلقًا، أو طبعًا، لعل أبرز مثال على ذلك أنها لا تستطيع أن تدفع عني الشعور بالملل أو الضيق، هذا النفس الشرقي الحاني في نسائنا عند هدهدتهن لرجالهن، وأعود إلى قناعتي الفكرية بأن الكمال ليس له وجود على الأرض، أهو حب الثبات على المبدأ لأن هذا هو اختياري الشخصي، فعلي أن أتحمل مسئولية اختياري كاملة غير منقوصة من جانب، ومن الجانب الآخر حتى لا أعطي فرصة للآخرين بأن ينتشوا، لأن توقعهم بفشل هذا الأمر قد حدث.

وكان أهم نجاحات هذا الزواج، هو ميلاد ابنتيَّ التوأم "سالي وسلمى" وما كادتا أن تقفا على أقدامهما حتى كان خالد يأخذ وضعه معلنا لنا عن قدومه، هل أسعدها قبولي لفكرة الأسرة الكبيرة أو محاولة لتجاوز الخلاف بيننا؟ الخلاف دائما بسبب اختلاف المشارب الثقافية، فأنا ما زلت احتفظ بعقلية الفلاح المصري، أفعل وأسعى وعلى الله أرتكن، أما سوناتا فكانت تعمل كل شيء بالحساب، والترتيب، وتراعي كل الجوانب بدقة عند البداية، ومع البداية لا تتوقف، وعند الخطأ لا تلقي اللوم إلى على نفسها.. صورة من صور العقلية الصناعية، التي تتكيف مع الأيام بشكل يعرف لها قيمتها، فيحصل على أثمن ما في الدنيا.

فوق هذا كانت هناك دقات صغيرة تؤرق كلينا، وهي التحيز الخفي والعصبية المتسللة من وراء الستار، التي أخذت تلوح معالمها مع تربية الصغار.

لقد كان تدخلي في البيت وشئونه، أمرًا صعبًا من قبل، أما الآن فهو فريضة، وحاولتُ أن أعطيها هذا المعنى بهدوء لأنها لا تقبل المساس بكرامتها كزوجة، وأم.. ثم كأنثى، كنتُ أخشى أن تأخذ الموقف على سبيل الاتهام بالتقصير، وكاد أن يحدث لولا أنها سألت عن دوافعي لهذا.

فلما استطعتُ أن أصوغها بشكل مقبول ومرتب، هكذا دومًا حالي معها كأني جالس إلى قاضٍ متربص لا إلى زوجة أبادلها الأمل، وأدفع بها الغم، حتى على المستوى الشخصي، فكل تصرفاتها معي بالترتيب، والدقة كمحطة القطارات، إلا في أيام الإجازات فإن القاعدة هي لا قاعدة.

أذكر إحدى مرات الخلاف في إجازة بسبب حادث عارض في الطريق، وكعادة العربي صاحب العدالة تدخلتُ لفض هذا النزاع معتمدًا على تراثي البدني، لم ينل هذا إعجابها، بل أكدت أنها تمنت أن أصاب في هذا العراك.. لماذا؟ لأني تدخلتُ في عمل ليس من اختصاصي، فهذا من عمل الدوريات.

أما عندما أخطأ أحد الصبية، وكسر زجاج السيارة الأمامي، ثارت حتى حضر والد الصبي ودفع ثمن الزجاج، أدهشها اعترافي بأن اعتذار الصبي كان يكفيني، أما العوض، فهو تصرف دنيء.. وكان ردها في غاية الاختصار "العقاب للمخطئ، وكل خطأ له عقابه".

بالتأكيد إنه اختلاف المصادر الثقافية، اختلاف فهم الآخر من باب التعاطف، كل هذه الأفعال من باب الصغائر، لكن المحزن والمخزي حقا هو دخولها في صراع المساواة، والوقوف كتفًا بكتف فهي لا تنسى أنني غريب لا أحمل الجنسية، ولهذا يجب أن أخضع أو أرضخ لبعض تصرفاتهم الممزوجة بماء العند، وغبار الندية، فعندما أنتقد تصرفًا لها ترد بالمثل وبقسوة وحدة، لا تُسلِم بالخطأ أو تتوقف في لحظة العراك، فللأسف كل لحظاتها عراك صعب لا لحظة عراك طيبة أو اضمحلال، من أجل امتصاص اللحظة، لكن كالعادة.. صرفتُ النظر عن هذه التصرفات الصغيرة، بالتأكيد الصغار هم سبب التغافل والغفران، الأمومة.. هي الأخرى لها معنى آخر عندها يختلف عن المعنى العربي، فهي ليست جياشة، وفياضة مع الصغار، لكنها منطقية معهم جدا، لا تبخل عليهم بالمد الوجداني إلا إذا اصطدم هذا المعنى مع أحد حقوقها، فلا تتنازل عن حقها، ولا تضيع حق صغارها، شكل صارم من

النظام لم أعتد عليه حتى عند المداعبة، واللعب مع البنات بين التنازل من طرفي والبذل العاطفي، وقبله العقلي من طرفها استمرت الحياة على نحو من البساطة، وتساهل العقلاء، وتسامح الكرماء، حتى إن ليندا كثرت زياراتها للبيت عندنا، وكثيرا ما شاركتنا مائدة العشاء.

"أخشى أن ينتقل العطف الممزوج بالشفقة من عينيك إلى سهم في قلبك ثم...".

ضحكتُ من غيرة سوناتا التي لمحتها من قبل، وأظهرتُ سعادتي بهذا، و أني سأتمسك بهذه الزيارات حتى تظلي على لوعتك هكذا، ودائما حجتها في هذا أني أنظر لليندا تلك النظرات الغامضة التي تتجاوز معنى الشفقة، وذكرتني بأني كنت أنظر لها هكذا من قبل، غيرة سوناتا زائدة حدًا ما، ولكنها تسعدني.

كنتُ أفهم السر وراء زيارات ليندا فهي للأسف، وإن كانت جادة في عملها الحر، ولكنها إحدى ضحايا الحرية!.. ورغم هذا تتلمس إطار الاستقرار والأمان، فأنا أعلم عنها كثرة التجارب في مجالٍ حرج، كل هذا بسبب فراغ الوجدان من مرشد، أو دليل يحق له السمع والطاعة.

كان الاستهتار والتهاون شكلا من أشكال القلق الصادر عن خوفها من المستقبل، والأعجب من ذلك أنها ذات روح استقلالية هشة تتساوى عندها مع الفوضى، وعدم الالتزام بأي حدود أخلاقية إلا حدود القانون والجريمة، فعند هذه اللحظة فقط تتوقف ليندا.

كان هذا بداية تعارفي بليندا عند الاحتفال الصباحي، ولم أقف عند جمالها الشكلي، والمادي الذي يفوق سوناتا!.. فجمال ليندا كضوء البرق يخطف الأبصار، وأصعب ما فيه أن وميضه لا يخفت إلا إذا احترقت به، أو على الأقل دنوت منه جدا، عندها تلحظ أنها شاحبة ذات عين منكسرة، وهذا ما حدث لي فعلا فقد اقتربت ليندا مني على مهل، هل كانت تبحث عما أعجب صديقتها فيّ؟!

حقا دائما كنت أشفق عليها، لقد استوقفتني هذه الشفقة ذات مرة مع نفسي... لماذا؟ على مهل وجدت الجواب البسيط:

إنه الجمع بين النقيضين في قالب واحد، كانت رفيقة لزميل... لم أتتبع الخبر، لكنه أدى إلى زيادة الشفقة لها في وجداني، كنت أراها في أمس الحاجة لصديق، يعيد ترتيب وجدانها بلا أغراضٍ خفية.

كان المفتاح لهذا هو مشاركتها لنا حواراتنا الودية، سواء على مستوى أسرتي، أم على مستوى البعثة ككل، بلا خوف تعجبت من هذا الاهتمام المتبادل بيننا، وتلك الرائحة التي تفوح بيننا فقط على خلاف الشائع عنا.

"يا ليندا هي عندك صداقة لكنها عندي أخوة، لأنها تستقبح مني أن أستغل أخي، هذا لا يعني أن أتسامح معه لأن هذا سيؤدي إلى اللا مبالاة، أما الصداقة الصارمة التي تقوم على شكل اجتماعي لا أكثر من كونها قواقع بشرية متجاورة فهي لن تؤدي إلى أي فضيلة أخلاقية".

كانت هذه أول لقطة حوارية بين ليندا وبيني، شعرت أنها مستمتعة بالحوار لأنها أطالت النظر وسكنت لمدة كالمأخوذ بما يسمع، حقا إنها رمز الجمال الخاوي.

رفيقها هجرها بعد أن كانت قد أثبتت له كم كانت به شغوفة! لعلها بدأت تدخل دنيا الفوضى منذ هذه اللحظة، لأن الحرية التي انقلبت إلى التحررية عند الرفيق كانت استغلالا، أخطر ما في ليندا نظرات عينها الزائغة، لكنها حالمة، تبحث عن شيء ما، هي لم تحدد إطاره بعد، كم هي ضعيفة!

ليندا سقطت في يدي، وأخذت تبوح لي بما في داخلها من أسرار، وهموم وآمال، هل أنا هنا كمحلل نفسي أو مهندس؟

إحدى العاملات مع ليندا سألتني مرة أمامها سؤالا وقحا، فأنكرتُ، و اندهشت لأني رفيق ليندا، ولا بد أني أعرف هذا عنها، لأنها بالتأكيد سقطت بين يدي أكثر من مرة! لم أجد ما أدفع به عن نفسي سوى ابتسامة باهته، وأؤكد على أن سوناتا لو أحست بشيء كهذا أكانت تصمت؟ سألتني بعدها بانكسار غريب: بماذا تحدث نفسك عني؟!

لم أكن أدرك أنها تملأ فراغها الوجداني بحواراتي أو تتخذ مني دليلا لشيء ما، كانت المؤشرات تدل على هذا فقد كفت عن أسوأ عاداتها، وهي تقلبها بين الرجال، وبحثها عن... الآن عندها بعض الثبات لتقف في وجه الحياة بلا رفيق أو... إنها معجزة.

"لا بد أنها تسعى لإرضاء حبيب غالٍ أو أنها وجدت حبها الكبير، ومن يرفض حب ليندا؟!".

فكرة وتعليق كنت أسمعه، بلا تركيز أو إدراك بالمعنى المقصود، لأني ما زلت أرى فيها معنى كسر القيد بلا داعٍ هذه هي النتيجة أرقتها الحرية، و أتعبها عقلها فخدعتهما بالمخدرات.

"هل ما زلت تنظر نحو بشيء من الشفقة أو أنك تحولت وأمسكت عنها، أو أن سوناتا تدفعك في الاتجاه المضاد، لأني أقل من أن أُحترم؟".

كانت تلمح، لأن سوناتا ترى فيها صورة من صور الماضي المؤسف، لكن سوناتا كانت قد فهمت معني الصداقة في وجداني.

إن ليندا تحيا من أجل المبارزة في كل شيء تعمل بالتجارة والمضاربة بالأسهم والسندات، وتملك المال ودائما تبحث عن الربح والربح فقط هو الهدف، لذا تجدها تعاني من عذاب التفكير المستمر.

"إني أعجب من سحر حواراتك وكيف استمر بنا الحال هكذا؟، كيف سقطت بيننا كل السدود؟ وارتخِى أمامك بلا حرج أو خوف، إنك حقا تجيد فن الاستماع وقبض زمام الحوارو...".

طال انتظاري لباقي حوار ليندا، لقد فرت واختفت، حتى جاءنا خبر انتحار ليندا عندما أيقنتْ أنها مصابة بهذا الرعب الجديد "الإيدز".

إنها ضحية للتقدم، ولمجتمع الوفرة الذي أعطى كل شيء ونسي ملء الأرواح بالحنان والصبر، لم أستطع أن أحبس دموعي حزنا وأسفا على هذه الراحلة في بؤس فلم يدل على موتها إلا فوح رائحة العفن، أحيانا تكون آلام الفراق، وهجر الحياة أرحم، وأهون من عذابات عقل، و أيسر من تحطم حلم.

انزعج المحيطون من بكائي الحار على ليندا، لم يدركوا أني كنت الوحيد العالم بسر مرضها، فهي لم تبح به لأحد سواي... لماذا؟

لعله حسن الظن بوجدانياتى في لحظات الضيق والألم.

"لو كان القانون يسمح بالزواج بالثانية لكنت أنت هذه الثانية".

دعابة كنت أمازحها بها، كلما مررت بمكتبها العاملة به... ودائما كانت تشكرني عليها قائلة:

"أنت أكثر مما أتمنى في الدنيا، ما أجمل الشعور بالتعاطف!".

الانفتاح أدى كما أرى للتخبط والترنح وغياب الروح، لن أدع البنات هنا أكثر من ذلك.

(١٥) على الجانب الآخر.

آخر ما تردد في ذهني و أنا أودع المطار في ألمانيا بعض حوارات (تيمور) التركي، الذي ظل يتمسك بأننا سوف نتلاقى في ظلال العلم الأخضر، عندما يكسر (أوزال) طوق الجنرالات، وأصر على دوام المراسلة بيننا.

أما نغمات الشجن، فكان مصدرها الدائم لحن ليندا التي ما زلت أذكر لها يوم أن أضحكت سوناتا بصوت عال في أيام الزفاف الأولى، فتظاهرت بأني أعدو نحو سوناتا لأستطلع السر، فضحكت ليندا ومارلين التي أشارت إلى ليندا قائلة:

هذه الوقحة تسأل عن...

فانصرفتُ خجلا، فضحكن جميعا، وتصنتت على سوناتا وهي ترد قائلة:

لا ليس هكذا، فهو صاحب منطق حتى في هذه الزاوية.. لا يفرض عليّ شيئا دون اختياري، ويحترم فكري، فكلانا للآخر، لا بالبيع والشراء، ولكن بالعطاء.

ضاعت ليندا، فهي لم تطق الفكر المتزمت، ولا أن تستوعب فكرة الحرية المطلقة حتى في الجنس. هبطت الطائرة في مطار القاهرة، وكان في استقبالنا زملاء الماضي القريب مع أسرتي التي ترى سوناتا لأول مرة، لا أنكر صدمتهم، حين وقعت أعينهم عليها، لكن الفرحة بالصغار سلمى وسالي وخالد

ألهت الجميع عن هذا، فرحت سوناتا باللقاء مع أميمة التي أسكنت نبض قلبها الخائف لحد ما.

سوناتا في قلبها الكثير من الأساطير على مستوى الزوج، أو الأهل، أو البلد، ولكنها تلتزم بالاتفاق السابق بأن يشب الصغار في مصر، أي لا بد أن يتم خالد عامه الثامن عشر في مصر، وبعدها نبحث في الأمر.

لقد كنت أبعث لأسرتي، لتبحث لي عن مكان إقامة متميز في مدينتي الصغيرة، ويتحقق فيه شرط الاتساع الأفقي مع الحفاظ على وجود (فيلا داخلية) أقيم فيها، وعائلتي حولي.

بالتأكيد كان أهم ملحوظة لم تسعد بها سوناتا، الحر الشديد، فاستدعى هذا أن أبدأ النزهة الداخلية لها على شاطئ البحر، ويقوم الأهل بإعداد تكييف بالفيلا.

لم تتدخل سوناتا في علاقتي مع عائلتي، فهي تفهم معني العائلة، وتشربت هذا المعنى من خلالي منذ زمن، فعند أي لحظة بذل مادي من قبلي نحوهم، ستكون هي المتهم، ولن أنصفها، فإذن لا داعي لأن تجرح كبرياءها في جولة خاسرة، ظلت تتعامل بشكل طريف، وغريب في نطاق الأسرة، ولكن ما أسرع أن تذوب كل هذه الأشكال مع الأيام.

بدأت المعركة سريعا، عندما أخذتُ أعد أوراقي، للدخول للجامعة مرة أخرى، البعض يطالبني بأن أعامل كالبادئ على أول السلم مع إنكار باقي الألقاب العلمية، التي حصلت عليها خلال الفترة السابقة، هذا على الرغم

من أن كثيرا من المتعاركين كان يلجأ لي، لكي أساعده في الاشتراك بالمحافل العلمية، لكن النفوس التي تغلب مهما كان عقل صاحبها.

بحثت سوناتا عن دور لها في الحياة هنا غير كونها أما، لم تجد، حاولت أن تسترد صداقتها القديمة مع أميمة، فوجدت أن الاستجابة محدودة، بالتأكيد هي تدرك السبب! فالأحمال على أم مصرية كثيرة، هذا في حالة إصرارها على العمل خارج نطاق البيت، وأميمة كانت المجبرة على العمل والمحبة له.

بحثت سوناتا عن هواية تساعدها في هذا الفراغ القاتل فلم تجد! حاولت الاقتراب من نساء الأسرة، وتقبلت أن تناديها الأخريات باسم (سوسو) صدمها ضحالة الفكر حتى في المتعلمات منهن.

أمّا القضية الخاسرة دائما هي يوم الإجازة، فالبلد هادئة ليس بها مكان ترفيهي غير السير بالسيارة في شوارع المدينة، أو الجلوس بنادي الجامعة على شاطئ النيل... لا أكثر من هذا.

بدأ يتسرب إليها الملل، وينعكس على تصرفاتها المعتادة معي في كل شيء.

حاولتُ كثيرا أن أخرج بها من هذه الحالة، لكنها تسأم من الشكوى، وتخشى أن يكون هذا له مردود، بأنها تود التخلي عن وعدها السابق.

"كنتُ أظن بأني سوف أسكن الجنة، ولكن كل شيء هنا دليلٌ صارخ على الفساد والضلال حتى الصداقة بينك وبين عزت، أين ذهبت؟ ولِمَ تجمدت؟".

كانت أحيانا تبعث لي إشارات تعلن عن سخطها، وما يكمن في أمانيها..

"أخشى على الأولاد أكثر مما كنا هناك، فالليل هنا مظلم، ورجال الدورية لا أراهم، والتشابك والعراك سمة أساسية في الحي، المفروض أنه حي الصفوة المتعلمة".

وتارة أخرى تعلن بشكل سافر..

"الغلاء هنا لا يطاق.. العائد الشهري هنا لا يكفي، ماذا ستفعل عندما تنفد مدخرات البنك؟.. ماذا لو زادت طلبات الأولاد؟!".

كنت أتعلل بأن هذا قدر بعض الأجيال، أو الأفراد يضحي من أجل أن يسعد الأجيال التالية، وأستشهد على ذلك بألمانيا عقب الحرب.

ولكنها تقطع استرسالي هذا بضحكة، وطلب الكف عن هذا! لأنها لا ترغب في أن نزيد المسافة بيننا ابتعادًا.. فرغتْ كل طاقتها للأولاد، وللبيت... لكن بلا روح، كنوع من التفضل علينا بهذا... حتى كانت الخاتمة الحتمية!

(١٦) خطاب ونداء.

عزيزي عمر:

سامحني أولا.. لأني لم أستطع مواجهتك بما أنا مقدمة عليه، أتلمس الغفران في رحمتك، لأني دبرت أمري سرا.

فبحكم ما بيننا من تلاحم، وتناغم يشوبه بعض النقص مني أو منك لكن المركب كانت تطفو في نهر الحياة، بلا توقف، لأسباب داخلية.. وإذ اعترض مسار حياتنا عائق سريعا ما كنا نتكيف معه، أو نقهره بحبنا الدافئ وحنانك العجيب، حنانك الذي جعلك ملاذا (لليندا في مرضها)، أنت تدرك مدى تمسكي بك و أني لو تمكنت من أن أتلاشى في شخصك لفعلت.. لكن أنا لي طاقة، وحدود كأي امرأة على هذه الأرض.

فسامحني،.. لأني لم أستطع أن أصون العهد، وألتزم به على الرغم من أنك كنتُ معي صريحا وصادقا، وخير رفيق.

فلقد جهزت أوراق سفري، بدون علمك، اصطحبتُ معي سلمى كذكري منك، إذا لم تعد لألمانيا، وسوف أصون باقي العهد، سأرسلها إلى المدرسة العليا العربية، ولن أمنعها من الحضور لمصر، إذا وعدتني بأنك سوف تردها لي مرة أخرى، فأنت لا تخلف وعدا أبدا، وأما ما أخاف منه أن يستبد بك العند، وتسلم الزمام لغيرك، وفي هذه الحالة ستنتقم مني، بأن تحطم صورة الأم في عين خالد، أما سالي فهي تدرك من أمها، وأؤكد لك أنك لو نظرت لها،

فستجد كثيرا من ملامحي فيها، فصن لي أولادي كما سأصون لك أنا البنت الأخرى.

وبالتأكيد إذا أردت الحضور لنا، ولم شمل الأسرة، فما أسعدني بهذا! وإن كنت أشك في حدوثه، لكن عليك أولا مراجعة السفارة بشأن الحضور، فهناك تعليمات خاصة بك وإجراءات محددة لا بد من اتباعها عند الرغبة في العودة.

كانت السيارة الخاصة بسوناتا، أمام بيت الوالد، وتركت سالي وخالد هناك واصطحبت سلمى إلى المطاروغادرت إلى بلادها.

ذهبتُ إلى السفارة، ومعي الخطاب وصورة أخرى من سجل خدماتي في ألمانيا، لم أسمع لهم، لأني أحدثهم بلسان المسموح له بالإقامة وأب لأبناء ألمان، وتركت الخطاب و أنا أعلن بأني لن أتبع القواعد الجانبية، لا بد من معاملتي كألماني كامل.

لم أهتم بالرد، ولكني أعلنتُ، لا أريد زوجتي الهاربة، ولا ابنتي، وسأجعل من هذه الو اقعة فضيحة دولية، لأن زواجي موثق وسيكون الحكم للقضاء المصري بالإضافة للقضاء الألماني.

اتجهتُ في أعقاب هذا إلى إدارة شئون الهجرة، وقدمتُ شكوى في الموضوع، ونشرت موضوع مشكلتي بالصحف الألمانية إلى جانب العربية.

استغرقت الأحداث حوالي الشهرين، ونسيت الموضوع، وتركتها للأيام، فأنا معي خير معين على النسيان سالي وخالد.

أما شرط سوناتا بالتخلي عن الجنسية المصرية، لكي أدخل ألمانيا، فهو المستحيل بعينه.

"حضورك، إحدى الهبات الصغيرة منك لي، أما تمسكك بأن أفقد أنا العمل والأرض والأهل، البديهي أن يكون الذكر حيث عش الأنثى، فعد إلى العش فالأرض هنا بيضاء، تسمح لك بأن تزرع بها ما تشاء من أفكار، وتنال ما تشاء من ألقاب، وفوق هذا هنا المكسب المادي وفير... عد إليّ".

ضحكت، وأنا أمزق هذا (الفاكس) المغلوط في منطقه، وسأظل أضحك حتى يحكم القضاءان وأضحك أكثر لأن منطق صلاح انتصر، رغم التناغم... رغم الامتزاج والالتصاق!

تمت

المنصورة يناير ٢٠٠١

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017